ابراهيم محمد حسن الجمل

قصة الخليفة
عُمَر بن عَبْد العَزيز

الدار الذهبية

١٠ شارع أحمد تيسر
كلية البنات - مصر الجديدة
تليفون : ٣٥٥١٧٤٨ - ٣٥٤٤٧٤٨



مقدمة

قصة الخليفة الأموى العادل عمر بن عبد العزيز وسيرته المملوءة بالعظة والعبرة ، رددتها الليالي والأيام منذ زمن بعيد ، تدعو الناس لأن يعوها جيدًا ، وأن يأخذ كل واحد منها بالطرف الذي يتفق مع حياته ، ففيها الكثير مما يحتاج إليه الإنسان ليكون سعيدًا فى حياته الدنيوية وفى آخرته التى هى دار الخلود والبقاء ، سواء فى ذلك سيرته قبل أن يتولى الخلافة أم بعد أن تولاها وأصبحت صورة واضحة لكل من يتولى أمرًا من أمور الناس صغر هذا الأمر أم كبر ، فكانت نموذجًا يقتدى به ، وينسج على منواله .

إنها كتاب جليل القدر .. نافع لكل من تتبع مواقفه التى تشهد له بالصراحة والوضوح ، وهو مع نفسه أو مع غيره ، فكانت مثلًا أعلى ينبغى للإنسان أن يتأسى به .. فيه التقوى والصلاح والجرأة والكفاح .. وبخاصة عندما يتولى أمرًا من أمور الناس عليه أن يقتدى بعمر ، وأن يتتبع خطاه ، وأن يبحث عن الوسائل التى اتبعها فى حياته ؛ فقد جعله الله نبراسًا وهداية ، فالمولى سبحانه وتعالى لم يعط عمر ما أعطاه من الفصاحة والبيان والتوفيق فى كل ما قام به من أعمال إلا ليكون قدوة ومنارة يهتدى بها من شاء ؛ فقد نال من العلم والمعرفة ما شاء الله له ، ولم يبخل على أحد برأيه ونصائحه ، فكان كتابًا مفتوحًا يطلع عليه كل من صادف أمرًا عز عليه أن يجد له غاية ، أو موقفًا صعبًا يحار فى الوصول إلى حله .

* * *

ولقد تتبعت فى القصة هذه أطوار حياة عمر بن عبد العزيز قبل ولادته تتبعتها مع أجداده ومع أبويه ، فإن العرق دساس ، ثم تتبعت طفولته فى المدينة ومصر حيث كان والده واليًا عليها ، وأثر مدرسة المدينة فى تربيته وتعليمه ، ثم احتضان عمه الخليفة عبد الملك بن مروان له وتزويجه لابنته

فاطمة وأثرها فى حياته ، ثم اختيار ابن عمه الخليفة الوليد بن عبد الملك ليكون واليًا له على المدينة ، وما قام به من تهدئة نفوس أهل المدينة بعد ما مر بهم من مآس وأحداث جسام ، وما قام به من إصلاحات فى مدينة رسول الله ﷺ ، ثم نقله من المدينة التى أحبها إلى دمشق عاصمة ملك بنى أميه . فقد أقام بها ، وانفعاله بالأحداث التى توالت عليها ، ثم لما تولى الخلافة ابن عمه سليمان بن عبد الملك قرّبه إليه أكثر ، فأخذ ببعض نصائحه ، ثم وقع اختيار الخليفة سليمان على عمرَ ابن عبد العزيز لولاية العهد من غير موعد أو اتفاق ، فكان لهذا الاختيار أثره الكبير على أولاد بنى أمية وبنى مروان .

* * *

وكان دوره العظيم الذى قام به عندما تولى الخلافة لم يترك بابًا من أبواب الإصلاح إلا قام به .. متبعًا الطريق الذى سار عليه رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدون من بعده .. متأسيًا بما كان عليه جده الراشد عمر بن الخطاب ، فكان مثلًا أعلى للحكم الإسلامى وما يجب أن يسير عليه الحاكم المسلم ، فكان قدوة تحتذى لمن يسلك الطريق القويم والمنهج الصحيح الذى ينبغى أن يسير عليه الحكام جميعًا .

لقد اهتم الخليفة عمر بالقرآن ودراسته ، وتدوين السنة ، ومنع العادة السيئة التى درج عليها بنو أمية من سبهم لعلىّ وأولاده على المنابر بما فيها منبر مسجد المدينة من غير حياء أو استحياء ، ووضع مكان السب واللعن آيات كريمة من القرآن فرحمه الله رحمة واسعة .

ولقد حارب الخوارج فى عهده بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة حتى ضمهم إلى صفه ، وكان الحكام قبله يحاربونهم الحكام بالسلاح والقوة ، كما فعل يزيد بن معاوية بأهل المدينة ، وكما فعل الحجاج بن يوسف الثقفى بمكة وهدمه للكعبة حتى قضى عليهم .

وكان لعمر مع أولاده وزوجاته منهج قويم يتأسى به ، وكان له فى التعليم والعلم منهج تربوى يجدر بنا أن ندرسه ونأخذ منه ما ينفعنا فى حياتنا التعليمية ، وله مع ابنه عبد الملك خاصة مواقف جديرة بالدراسة ؛ لأن فيها كثيرًا من النفع والفائدة .

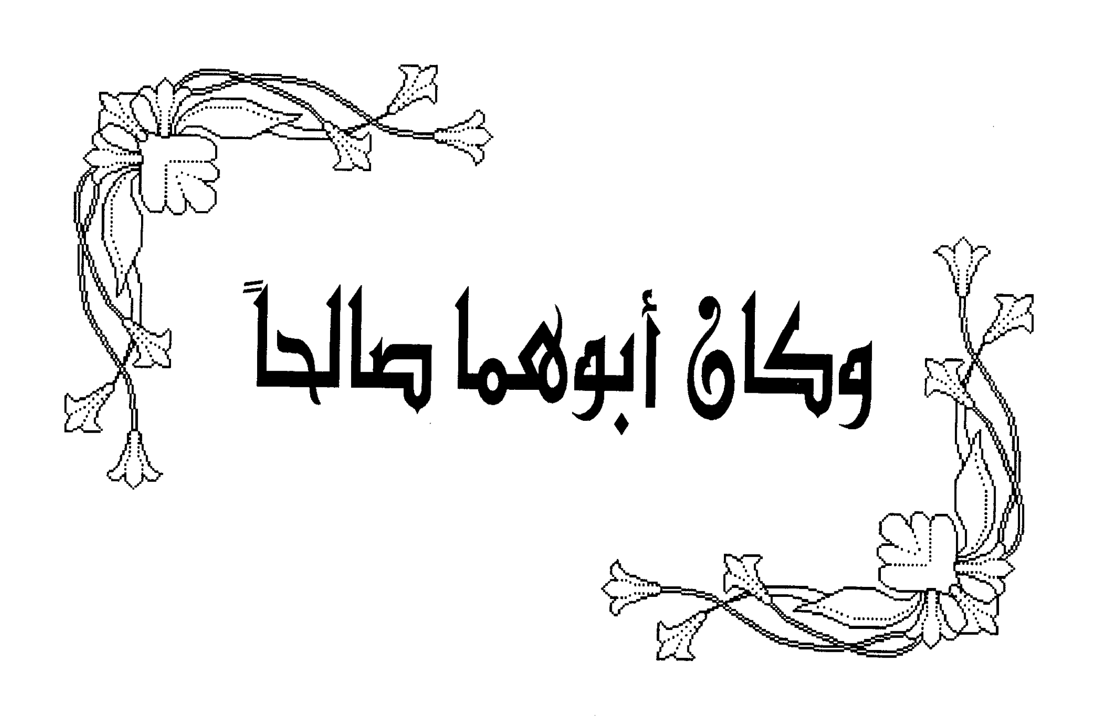
ثم قارنت بين القوانين التى سار عليها عمر فى أحكامه وبين أحكام الشريعة الإسلامية ، ورأيت أن منبعهما واحد ، لقد كان مخلصًا فى تناوله لتلك الأحكام .. قويًا فى تنفيذها ؛ فأثمرت وأينعت ، وكان له فيها بركات أغنى الله بها العباد ، فكانوا جميعًا سعداء حتى إن ولاته فى يوم ما لم يجدوا من سيعطونه الزكاة .

ثم ناداه ربه فلبى النداء واستعد للذهاب ولم يمت كما يموت البعير ، بل مات شهيدًا .. فقد وضعوا له السم ، فتعذب جسده وروحه ، ولقى الله وقد تحمل كثيرًا من سكرات الموت ، ويأبى الله إلا أن يموت وهو فى جهاده وإرسائه للحق والعدل .

كتبت كل هذا بأسلوب سهل ممتنع ؛ ليستفيد منه العامة والخاصة ، والله أسأل أن ينفع به ، ويرحم الله عمر ، ويرفع منزلته مع النبيين والشهداء والصالحين ، ويلحقنا بهم فى جنة الخلد فى الآخرة عند أرحم الراحمين .

إبراهيم الجمل

* * *



وكان أبوهما صالحاً

وكان أبوهما صالحاً

صلاح الآباء يكون بما يقدمون من أعمال الخير ، وما يتصفون به من صفات حسنة ، وما يتمسكون به من مبادئ هادفة ، ومن قيم سامية ترقى بهم إلى أسمى الدرجات ، ومن عمل يحبه الله ورسوله .. كل ذلك يرفع مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى ، ولا ينفعهم وحدهم ، بل ينفع الأبناء أيضًا ؛ فيسهل لهم طريق السعادة ، فتلحظهم العناية الإلهية ، وتدفع عنهم الشرور والآثام .

وقد قيل :

إن صلاح الآباء يظهر أثره فى الأبناء من الجد السابع .

وجاء القرآن الكريم صريحًا بما يؤيد أثر صلاح الآباء ونفعه للأبناء، فقال سبحانه وتعالى :

﴿ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ... ﴾[1] .

فإقامة الجدار حتى يُحتفَظ بالكنز إلى أن يبلغ الغلامان رشدهما ، ويعرفا ما ينفعهما ، ويتصرفا فى مالهما بما يعود عليهما بالنفع ، ويستمتعا بما يحتويه الكنز من مال ، ليقضيا به حاجتهما ، فلا يحتاجان إلى الغير .. كل ذلك إنما حصل بالأعمال الصالحة التى قدمها أحد الآباء ، فقد لاحظتها العناية الإلهية فحققت ما أرادته مشيئة الخالق سبحانه وتعالى ، وهذا بتوفيق من الله ، والتوفيق أمر عظيم لا يهبه الله إلا لإنسان عظيم يقوم بأعمال صالحة .

(١) سورة الكهف الآية : ٨٢ .

وما نال عمر بن عبد العزيز تلك المنزلة ، وأصبح مهيأ لها إلّا بإعداد الله له فضلًا وتكرماً ، وبما قدم الآباء والأجداد من أعمال صالحة حسبت له ، ونال بها عمر تلك المنزلة العظيمة فى دنياه وآخرته .

لقد كان آباؤه من الصالحين وحفظ التاريخ الكثير من أعمالهم ، ومن هذا الصلاح ما كان من جدته لأمه ، ويروى لنا التاريخ بعضًا من هذا العمل الصالح .

ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب ، وهو جد من أجداد عمر بن عبد العزيز ، كان دائم العسس ليلًا ؛ ليطمئن على أحوال الرعية ؛ وليطلع على ما هُمْ عليه من راحة وأمن واطمئنان ؛ وليقضىَ لهم حاجاتهم .. وبينما هو يعس ليلًا ومعه صحابى اسمه (أسلم) إذ غلبه الإعياء فاتكأ على جدار فى جوف الليل ، فسمع صوت امرأة تنادى ابنتها لتقول لها :

يا ابنتاه ! قومى إلى ذلك اللبن فامذقيه بالماء[1] .

فقالت لها الابنة :

يا أمتاه ! أوَ ما علمت بما كان من عزمة أمير المؤمنين اليوم ؟

قالت :

وما كان من عزمته يا بنية ؟

قالت :

إنه أمر مناديًا فنادى أن لا يُشاب اللبن بالماء .

قالت لها :

يا بنتاه ! قومى إلى اللبن فامذقيه بالماء ؛ فإنك بموضع لا يراك عمر ولا منادى عمر .

فقالت الابنة :

يا أمتاه ! والله ما كنت لأطيعه فى الملأ ، وأعصيه فى الخلا .

---

(١) امذقيه : اخلطيه ؛ فالمذق : الخلط .

كان عمر يسمع ما دار بين البنت وأمها ، وهو معجب برد البنت على الأم .. مبهور بصلاحها ، وقوة إيمانها ، فتهللت أساريره ، وانشرح صدره ؛ لأنه سمع قولًا يشعّ منه اليقين والصلاح ، ويكشف عن نفس عرفت حق الله من الحلال والحرام ، فاستحقت أن تكون عند الله من الصالحين .

رجع عمر إلى داره يفكر فى أمر هذه الفتاة ، ويري أن يربطها بنسب يقربها منه ، فالعِرقُ دساس ؛ فإن أنجبت فمما لا شك فيه أنهـا سيكون من أولادها نسل صالح ! .

وفى وسط النهار دعا أولاده ، فقال لهم :
هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه ؟

فقال عبد الله ابنه :
يا أبتِ ! لى زوجة ، ولا أريد ثانية .
فنادى عمر ابنه عبد الرحمن ، وقال له ما قاله لابنه عبد الله .
فقال عبد الرحمن :
وأنا يا أبتِ ! لى زوجة ولا أريد أخرى .

ثم اتجه عمر إلى ابنه عاصم ، ولم يكن له زوجة فناداه ، ثم قص عليه ما رأى وسمع فى ليلته ، وطلب منه أن يذهب بنفسه إلى تلك الدار بعد أن حددها له ، وليأتينّه بخبر أهلها .

انطلق عاصم يسأل ويتقصى ، وسرعان ما رجع إلى أبيه ليؤكد له أن البنت ، لم تتزوج ، وأنها تعيش مع أمها ، وليس لهما رجل ، وأنهما من بنى هلال .

فقال عمر لابنه عاصم :
اذهب ــ يا عاصم ! ــ فتزوجها ، فما أراها إلا مباركة صالحة ، وليبارك الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى ذريتكما ، وما أحراها أن تأتى بفارس يسود العرب .

إن مقولة عمر هذه لن تذهب هباء، وهو الملهم الصالح الذى كثيرًا ما كان ينزل الوحى مُصدِّقًا لكلامه .

وعمر هذا قال النبى ﷺ فيه :

« قد يكون فى الأمم محدثون ، فإن يكن فى أمتى أحد فهو عمر بن الخطاب » .

* * *

وتزوجها عاصم ، وهو صالح ابن صالح ، وجده لأمه كان رضى الله عنه صالحًا ، وهو شهيد وكفى بالشهيد صلاحًا ، واسمه عاصم بن ثابت .

فقد بعث رسول الله ﷺ سرية ، وأمَّر عليها عاصم بن ثابت ، وهو ابن أبى الأفلح الأنصارى الأوسى .

انطلق عاصم ومن معه حتى كانوا بين عُسْفان ومكة ، فعلم حيّ من بنى هُذَيل ، وهم بنو لحيان بخبرهم ، وهم على دين المشركين ، فتبعوهم فى قريب من مائة رجل رامٍ حتى لحقوهم ، وأحاطوا بهم ، وقالوا :

لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلًا .

فأبى عاصم أن ينزل فى جوار مشرك ، فقاتلوهم حتى قُتِل عاصم ، وعلمت قريش ، فأرسلوا من يأتى بجسد عاصم ، ليمثلوا به ؛ لأنه قتل سافع ابن طلحة وأخيه يوم بدر ، وكانت سلافة أمهما قد نذرت لئن ظَفِرت برأس عاصم لتشربن فيه الخمر .

فلما أقبلوا ليجتزوا رأس عاصم ، بعث الله فوق جسده مثل الظلة من الدَّبر ، فلم يستطيعوا أن يقربوا منه ، فلما أعجزهم قالوا :

إن الدَّبر سيذهب إذا جاء الليل جئنا لنقطعها ، ونذهب بها إلى قريش ،

فبعث الله سيلًا ، فحمل عاصمًا رضى الله عنه إلى حيث يعلم الله فلم يقدروا عليه !

فأطلق على عاصم بن ثابت جد عاصم بن عمر (حَمِيّ الدَّبَر) [1] ، وكانت هذه كرامة ، أكرم الله بها عاصم ، وهو جد من جدود عمر بن عبد العزيز .

وكذلك فقد تربى عاصم بن الخطاب فى بيت جدته لأمه وهى الشموس بنت أبى عامر الأنصارية ، وكانت من المبايعات لرسول الله ﷺ قبل الهجرة .

وأم عاصم بن عمر من الصالحات التى غير الرسول ﷺ اسمها ، وكانت تدعى (غاضبة) فسماها رسول الله ﷺ (جميلة) ولا يغير رسول الله ﷺ اسم أحد إلا إذا كان يُرجى من صاحبه خيرٌ وبركةٌ .

* * *

فرح عمر بن الخطاب كثيرًا بزواج ابنه ممن اختارها له ، وشغل باله ما سيكون من الخير العميم الذى استولى تفكيره عليه ، وفى إحدى الليالى انتبه عمر بن الخطاب من نومه وهو يقول :

(ليت شعرى مَنْ الأشج من ولدى ، والذى يملأ الأرض عدلًا)

وأخذ ابن الخطاب يردد هذه العبارة ، ثم رددتها الأيام من بعده إلى أن تحققت على يد عمر بن عبد العزيز أحد أحفاد عمر بن الخطاب .

كانت من ثمرة زواج عاصم بن عمر ابنة أسموها ليلى ، وكنوها من بعد (أم عاصم) فاشتهرت بهذه الكنية .

نَمتْ ليلى فى جو المدينة ، والمدينة المنورة سكن الجميع .. يتنقلون فيها ، وأسعد الساعات أن يكونوا فى مسجدها المبارك ، فكثيراً ما كانت ليلى

---

(١) الدَّبر : هو النحل والزنابير .

تذهب إلى المسجد ، وتجلس بجوار عمها عبد الله بن عمر .. تستمع إليه وهو يحدث الناس ويعلمهم ، لقد حفظت كثيرًا مما يرويه من أحاديث رسول الله ﷺ ، وآيات الكتاب الكريم التى يقرؤها حتى أثرت ، وكثر ما تعيه ذاكرتها .

كان عمها عبد الله يحبها ، وينظر إليها نظرة إعجاب لذكائها المفرط مع صغر سنها ، وصلاحها مع طيب أرومتها من جهة الأب والأم ، وحفظها لكثير من أحاديث الرسول الأمين ﷺ ، لقد عرفت مع صغرها طريق الزهد والعبادة والمواظبة على الصلاة فى مسجد الرسول ﷺ ، فكان لذلك أثر كبير فى حياتها .

* * *

رآها عبد العزيز بن مروان مع عمها عبد الله بن عمر ، فأعجبته ، فسأل عنها فقيل له : إنها ابنة أخيه عاصم ، لقد أخذت لها مكانة فى قلبه وتفكيره ، فاستخار الله فى الإقدام لخطبتها ، وكان بين عاصم وعبد الله مودة وصلة ومحبة ، فعبد العزيز مفتون بابن عمر لبعده عن الاشتغال بالدنيا ، وزهده فى البحث عن الطريق الذى يؤدى به إلى الحكم ، فلا يقحم نفسه فى المغامرات ، ولم ينضم إلى حزب من الأحزاب المتقاتلة على الدنيا .

أقبل عبد العزيز بن مروان على عبد الله بن عمر يسأله عن الفتاة : هل هى مرتبطة بخطوبة ؟ وهل يمكنه أن يتقدم إليها ، ثم هل فى الإمكان أن يساعده لإتمام هذا الأمر ؟

قال عبد الله :

إنه يعتقد أن أخاه عاصمًا لن يمانع فى أن تقترن ابنته بمثل عبد العزيز ، وأنا أيضًا لا أمانع ، ولو صادف الأمر بعض العقبات فإنه سيذللها .

عرض عبد الله الأمر على أخيه عاصم ، فوجد منه موافقة ، فقد كان من المعجبين بعبد العزيز ، وبأخلاقه ودينه ، ثم تمت الخِطْبة .

علم بنو أمية بما أقدم عليه عبد العزيز من خِطْبته من آل الخطاب مع اختلاف بنى أميه عن آل الخطاب فى طريقة الحياة ، والسلوك الدنيوى ، وانتابهم شىء من القلق ، ولاموه على ما أقدم عليه ، وانصرافه عن بنات عمومته .. مع حسنهن وجمالهن وكثرة أموالهن ، فلما لم يلتفت إلى ما قالوه ، ووجدوا منه إعراضًا .. اتجهوا إلى أبيه مروان بن الحكم ، ليضغط على ابنه عبد العزيز فيصرفه عن هذه الخِطْبة ، فأجابهم مروان بأن هذا الأمر من شأن ابنه وحده ، ولا يريد أن يتدخل فى مثل هذه الأمور .

* * *

كان عبد العزيز من الصالحين ، فقد نشأ بالمدينة ، وحرص على درس العلم ، وروى الحديث ، وواظب على الصلاة فى مسجد المدينة ، ومما يؤيد ذلك أنه لما هَمَّ بالزواج طلب ذات الدين والصلاح ، وابتغى لها المهر الطيب الحلال ، فقال لقيمه :

اجمع لى أربعمائة دينار من طيّب مالى ، فإنى أريد أن أتزوج من أهل بيت لهم صلاح .

وظل عبد العزيز على صلاحه طيلة حياته ، وكلما تقدم به السن ازداد صلاحًا وطهرًا وعفة على خلاف ما كان عليه بنو أميه ، وبنو مروان ، كان حسن السياسة كثير الصدقات مسرعاً إلى الخير .

يقول عبد العزيز رضى الله عنه:

ما نظر إلىّ رجل قط فتأملنى إلّا سألته عن حاجته .

ويقول أيضًا :

واعجبًا من مؤمن يوقن أن الله يرزقه ، ويوقن أن الله يخلف عليه ، كيف يدخر مالاً عن عظيم أجرٍ أو حسن سماع .

* * *

فرح عبد العزيز، وحمد الله، وأثنى عليه، وشكره أن وفقه لاختيار الفتاة التى أرادها، وتذكر حديث رسول الله ﷺ :

« ما أفاد رجل فى الإسلام خيرًا من امرأة ذات دين تسره إذا نظر إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه فى نفسها وماله إذا غاب عنها » .

هنأه أصحابه، ووقف واحد منهم ليقول له :

أبشر فإن أمها خَيْرة عمر بن الخطاب لابنه .. انتقاها له، وقال وهو يزوجه إياها :

عسى أن يكون من ولدها فارس، وفراسة عمر لا تخطئ، فعسى أن يرزقك الله منها ولدًا تقر به عينك، وتطيب به نفسك، ويحقق آمالك ..

وندعو الله أن يكون من ولدها ذلك الفارس الذى بَشَّر به عمر !!

* * *

تزوج عبد العزيز، ولم يكد يمر على هذا الزواج زمن سواء قل أو كثر حتى حقق الله آيته فولدت مولودها، وكان عبد العزيز قد نذر إن رزقه الله بمولود ذكر ليسمينه عمر .. داعيًا الله أن يكون فيه شىء من شخصية جده عمر بن الخطاب .

كانت ولادة عمر حوالى سنة ٣١ هجرية، وكان قد حكم البلاد يزيد ابن معاوية .

لقد تولى يزيد بن معاوية، ثم معاوية بن يزيد، ثم تولى الخلافة بعدهما مروان بن الحكم، وفى هذه الأثناء لم يستقر حكم البلاد، ومرت بها فتن سوداء كقطع الليل، وكل ما نستطيع أن نقوله : إن عمر بن عبد العزيز كان فى حضانة أمه بالمدينة، وإذا كان هناك من الأحداث المثيرة التى اضطرت عبد العزيز والد عمر إلى الرحيل إلى الشام، فإن عمر لم يفارق حضن أمه

سواء أبقيت بالمدينة أم رحلت مع زوجها إلى دمشق فإن عمر ظل تحت رعاية والدته الحنون تعلمه وتؤدبه .

* * *

وينبغى لنا أن نتعرف على شىء من حياة عبد العزيز والد عمر ، هذه الحياة وهذه السيرة والمجتمع الذى كان له أبلغ الأثر فى حياة عمر فى صغره .. لقد حضر عبد العزيز ولادة عمر وسماه ، واعتنى بأم عمر التى أسموها ليلى ، ثم أطلقوا عليها فيما بعد (أم عاصم) .

انشغل عبد العزيز مع أبيه مروان بن الحكم وأخيه عبد الملك وهم الذين قادوا بنى أمية بعد أن مات يزيد بن معاوية ، وتولى بعده ابنه معاوية الثانى رضى الله عنه ، وكان قد زهد فى الحكم فتلقفه الرجل المغامر مروان بن الحكم ، وسعى إلى الخلافة ، وكانت من نصيبه وإن لم يستمر فيها طويلًا ، لكنه بايع لابنه عبد الملك ، ثم من بعده ابنه عبد العزيز .

* * *

مرت أحداث بالمدينة نفسها ، فلم ننس ما فعله بها الخليفة يزيد بن معاوية وقد امتنعت المدينة عن مبايعته ، فأرسل إليها جيشًا كبيرًا بقيادة مسلم بن عقبة المرى فأسرف فى القتل والنهب والاغتصاب ولم يراع حرمة المدينة ومن فيها ، كان عمر فى هذه الأثناء فى أحضان أمه ، ولم يكن قد جاوز العامين ، فلما مات يزيد بن معاوية وخلافته لم تتجاوز أربع سنوات ركب موجة الحكم عبد الله بن الزبير ، فاستولى على المدينة ، وطرد جميع الأمويين منها بما فيهم مروان بن الحكم وأولاده .. إلا أننا نوقن أن عبد الله بن عمر لم يفرط فى عمر وابنة أخيه أم عاصم ، والحوادث تترى إلى أن هدأت البلاد واستولى على الحكم المرويون بقيادة مروان بن الحكم وإن لم تطل مدة حكمه ، فقد تلقف الخلافة من بعده ابنه عبد الملك ثم ولداه .

انشغل عبد العزيز مع الخليفة مروان والده ، فقد أشركه أبوه مروان فى استرداد ما استولى عليه عبد الله بن الزبير ، وكان قد استولى على مصر ، وكانت الكنانة وجهة الخليفة ، فقد سار عبد العزيز بجيشه إلى مصر من جهة (أيلة) عند العقبة ، فالتقى عبد العزيز وجيشه بحشود عامل ابن الزبير عبد الرحمن بن جحدم ، وكان نهاية هذه الحرب انتصار عبد العزيز بن مروان فدخل عين شمس ، ثم الفسطاط فى أول جمادى الأولى سنة ٦٥هـ وبنى الدار البيضاء لتكون مقرًا لحكمه ، وبما له من حنكة وسياسة الملاينة استطاع أن يقضى على ما بقى من أعدائه ، وبقى عبد العزيز يحكم مصر من سنة ٦٥هـ إلى سنة ٨٦هـ .

اشتهر عبد العزيز بالحزم وحسن الإدارة ، وقال المؤرخون :

إن عهده كان عهد تعمير وإصلاح وعناية بكافة المرافق .

كان رضى الله عنه حاكمًا طاهرًا تقيًا كثير الصدقات .. حسن السياسة مسرعاً إلى الخيرات .

* * *

قام بإصلاحات كثيرة ونافعة فى مصر ، فبنى مقياسًا للنيل ، ووسع مسجد عمرو بن العاص ، وأقام على خليج أمير المؤمنين قنطرة بطرف الفسطاط ، وأنشأ مدينة حلوان ، وجعلها عاصمة له ، ونقل إليها بيت المال ، وغرس فيها الأشجار والنخيل ، وبنى بها المساجد ، والأبنية الضخمة ، حتى قيل : إنه بذل فى ذلك مليون دينار .

وقال المؤرخون :

إن عهد عبد العزيز فى مصر كان عهد يسر ورخاء استطاعت أن تظهر بمظهر النشاط الأدبى والمادى ، وتغنى الشعراء والأدباء بأعمال البر والكرم التى قام بها عبد العزيز وقالوا :

كان له ألف جفنة تنصب حول داره، ومائة جفنة تحمل على العجلات ويطاف بها على قبائل مصر .

وقيل : إنه لم يترك عند وفاته من المال غير سبعة آلاف دينار، عدا أمواله المحدودة فى حلوان، وقيسارة أبى مرة، وما خلفه من الخيل والرقيق والثياب المرقع بعضها .

فلا عجب إذا أجمع الناس فى مصر على محبته، ورضوا عنه وعن ولايته .

* * *

أخذ عبد العزيز أموره بالحكمة والتريس مع أقرب الناس إليه، ولم يمل إلى العنف والشدة مع أخيه عبد الملك بن مروان ، وكان أبوه مروان قد عهد بالخلافة لابنه عبد الملك، ثم من بعده لابنه عبد العزيز وطالت مدة عبد الملك، وطمع فى أن يجعل العهد بالخلافة لابنه الوليد، وزاد من طمعه فطلب من أخيه عبد العزيز أن يتنازل عن ولايته بالخلافة لولديه، وكتب عبد الملك لأخيه عبد العزيز قائلًا :

يا أخى إن استطعت أن يصير الأمر لابن أخيك فافعل .

غضب عبد العزيز فى نفسه، ولم يرسل إلى أخيه يؤنبه، أو ينال منه، أو يعتب عليه، مخافة أن تصدر منه كلمة تسىء إلى أخيه، لكن عبد الملك كرر مطلبه، ولما لم يجد ردًا ، قال لعبد العزيز :

فاجعلها لابنى من بعدك، فإنه أعز الخلق إلىّ .

فأرسل إليه عبد العزيز يقول :

إنى أرى فى ابنى بكر ما تراه فى ابنك الوليد .

فكتب إليه عبد الملك قائلًا :

فاحمل خراج مصر إلىّ، وكان الخليفة مروان قد ولى عبد العزيز

مصر، وجعل خراجها له ليعيش منه ، وليتم الإصلاحات فى مصر، فلم يحمل إليه شيئًا ، وكتب إليه معاتبًا وناصحًا :

إنى وإياك قد بلغنا سنًا لم يبلغه أحد من أهلنا ، إنا لا ندرى أينا يأتيه الموت أولاً ، فإن رأيت ألا تعنت علىّ بقية عمرك ، ولا يأتيك الموت إلا وأنت واصل فافعل ! وتلك آيات المروءة والصلاح والإخلاص فى وقت الشدة .

* * *

لم يشغل عبد العزيز متاع الدنيا، وكثرة خيراتها، وملاذها، عن تمسكه بما عند الله ، والعمل على مرضاته بطاعته ، وإقامة حدوده ، وعبادته ، وكان له مجالس يغشاها الفقهاء والعلماء والأدباء، وكان الشعراء يحبون زيارته لما يجدون عنده من الاستجابة لهم، وإغداقه عليهم من كرمه وحسن استقباله لهم، ومن أوائل هؤلاء الشعراء جرير ونصيب وغيرهما، ومما قاله جرير من قصيدة طويلة قوله فيه :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

ووصفه أحد المؤرخين فقال :

... فكان عبد العزيز تقياً ورعاً .. يخاف الله ويخشاه ، ... ولقد عبر عبد العزيز عن هذه الخشية من ربه ، وهو على فراش الموت بهذه الكلمات :

(وددت أنى لم أكن شيئاً مذكوراً ، ولوددت أنى دفقة فى هذا الماء الجارى ، أو نبتة بأرض الحجاز) .

* * *

وهكذا فإن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يحدث أمرًا جللًا ، فإن المقادير تخطط له من بعيد، وترسم له الطريق الممهد المملوء بالعمل

الصالح ، ولا يكون ذلك إلا باختيار الصالحين الذين يؤدون حق الله وحق العباد ، ويقومون بكل خير حتى يحقق الله كرامته ومعجزته ، فَمَنْ مثل أجداد عمر من جهة أبيه ؟ وعلى رأسهم الرجل الملهم عمر بن الخطاب ، ومَنْ مثل الجد الشهيد حَمِيّ الدَّبْر عاصم بن ثابت ؟ ، ثم جدات عمر بن عبد العزيز الصالحات المؤمنات ، ثم نضيف إليهم صلاح الأب والأم .

كل هؤلاء جدير بأن يحقق المولى سبحانه وتعالى به معجزته فيأتى بمثل عمر بن عبد العزيز الذى لم ير مثله الدهر إلا نادرًا ، فكان مثلًا عاليًا ، وقدوة يقتدى بهما الحكام ، ومن يتولون أمر الناس ومصالحهم .

* * *


عمـر فى المدينـة

عمر في المدينة

قامت المدينة المنورة بدور كبير فى حياة عمر بن عبد العزيز ، فأجداده لأمه من خير ساكنيها ، وجده مروان بن الحكم لأبيه من الذين أقاموا بها ، وكان كاتبًا للخليفة عثمان بن عفان ، ثم وَلِىَ إمارة المدينة مرتين للخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان ، وكذلك فقد عاش بها عبد العزيز بن مروان والد عمر ، وكان لمروان بن الحكم قصر كبير بها ، فعاش آل مروان فى المدينة فى عز ورفاهية .

وفى المدينة تعرّف عبد العزيز على ليلى بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، وفيها تزوجها ، وفى قصر مروان بن الحكم كانت ولادة عمر ، وفيها قضى طفولته الأولى مع أمه أم عاصم .

ونستبعد ما يقوله البعض من أن ولادته كانت بمصر ، وفى حلوان عاصمة حكم عبد العزيز أبيه ، فلم يكن أبوه سنة ولد عمر قد دخل مصر ، ولم تكن حلوان قد بنيت بعدُ ، وذلك أن ولادة عمر كانت سنة إحدى وستين من الهجرة فى خلافة يزيد بن معاوية ، وكان عبد العزيز بالمدينة بعيدًا عن الحكم يعيش مع أبيه الذى لم يكن ذا منصب فى ذلك الوقت .

ونستبعد أيضًا أن تكون ولادته فى دمشق ، فلم يكن عبد العزيز قد أقام بها ؛ لأن بنى مروان لم يقيموا فى دمشق إلّا بعد أن طُرِدوا من المدينة فى أيام حكم عبد الله بن الزبير ، فقد جعل عاصمة حكمه مكة المكرمة واستولى على المدينة ، وطرد منها بنى أمية ، وبنى مروان .

* * *

قضى عمر طفولته فى المدينة أيام حكم بنى أمية ، وما نظن أنه فارقها فى حكم عبد الله بن الزبير حينما ضيق الخناق على بنى أمية فضمها إلى

خلافته ، ولا نستبعد أن تكون أمه قد لجأت إلى بنى الخطاب ، وسمح لها بالإقامة بها إكرامًا لعبد الله بن عمر وأبيها عاصم بن عمر ، وكانت فرصة أن تُعَلِّمَه الأساس الأول الذى بنى عليه حياته ، فشغلت وقتها به تحفظه بعض سور القرآن الكريم وآياته ، وتلقى على مسامعه بعضًا من أحاديث الرسول ﷺ ، وتقص عليه شيئًا من سير الصالحين من الصحابة والتابعين ، وبخاصة سيرة جده عمر بن الخطاب ، وكانت تواظب على أن يلتقى ابنها عمر بعبد الله بن عمر الذى أحبه كثيرًا ، وكان عبد الله معجبًا بذكائه رغم صغر سنه ، وكان هو أيضًا يحب عبد الله ، وكثيرًا ما كان يقول لأمه :

إننى أريد أن أكون مثل خالى عبد الله .

فقالت له مرة حينما كرَّر على مسمعها قوله هذا :

وأين أنت من خالك يا عمر ! .

* * *

ثم استقر عبد العزيز فى مصر ، وفرح المصريون بولايته ، فلقد كان كريمًا فى معاملته لهم ، ثم أرسل يطلب زوجته وأهله ليقيموا معه فى مصر ، وطلبت أم عاصم من ابنها عمر أن يعدّ نفسه للذهاب معها إلى مصر ليلحق بأبيه ، ولكن عمر الطفل كان له رأى آخر ، فهو يرى أن يبقى فى المدينة ليتعلم ، وليكون بجوار خاله عبد الله .

قالت له أمه :

هيا معى إلى مصر ليراك أبوك ، ولتجلس معه قليلًا ، ثم تعود إلى المدينة حتى يحقق الله سبحانه وتعالى رغبتك .

قال لها عمر :

اتركينى يا أماه حتى أحصّل شيئًا من العلم ، ثم آتيكم إلى مصر وقد تعلمت الفقه والعلم والأدب .

وافقت الأم على مضض ، لكنها كانت مقتنعة بما يراه عمر ، وأنه

سيكون فى مراقبة أهلها آل الخطاب وعمها عبد الله بن عمر الذى قال للأم :

(اخلفى هذا الغلام عندنا ؛ فإنه أشبهكم بنا أهل البيت) ، وعمه عبد الملك ينفق عليه ، ويتولى أمره ، وهو الخليفة قريبًا منه فى دمشق .

* * *

خرجت قافلة (أم عاصم) من المدينة مع من أرسلهم عبد العزيز ، للإتيان بها ، فمرت على دمشق ، واستضافها الخليفة أيامًا ، وأخبرته بما كان من ابنها عمر ، فأعجب به وبذكائه ، ورغبته فى أن ينهل من العلم ، وطمأنها قائلًا :

سأرسل إليه من يتولى رعايته فى قصر جده ، وأمر بأن يجروا عليه ألف دينار كل شهر .

شكرته أم عمر ، ودعت له بالتوفيق فيما يقوم به من أعمال .

ثم واصلت القافلة رحلتها ، وعند حدود مصر استقبلتها الجوارى والخدم ، وظلوا معها حتى دخلت قصر عبد العزيز .

سألها زوجها عن عمر فقالت أم عاصم : لقد قلت له تعال معنا ليراك والدك ، ثم تعود إلى المدينة كما تحب ، فقال لى :

أريد أن أرى والدى ، وقد درست على أيدى العلماء والفقهاء ، واستفدتُ كثيرًا من علومهم فى الفقه والحديث والتفسير والشعر والأدب .

فقال لها عبد العزيز :

والله إنه لرأى فيه نضوج ، وسأرسل إلى واحد من علماء المدينة ليهتم به حتى ينال ما يريده من العلم والمعرفة ، واهتم بتربيته وتعليمه فاختار له المربى الذى يقوم بتثقيفه وتأديبه .

كتب إلى عالم من أبرز علمائها هو صالح بن كيسان من فقهاء المدينة وعلمائها ، وأصدقاء عبد العزيز بأن يتعهد عمر ويرعاه .. وأن يوافيه بأخباره .

تتابعت أخبار عمر تتلى إلى أبيه بمصر سواء أصغرت تلك الأخبار أم كبرت ، فحدث أن تأخر عمر يومًا عن أول صلاة الظهر ، وكان معلمه صالح بن كيسان يلزمه بتأدية الصلاة فى أول وقتها .

سأله صالح بن كيسان يومًا عن سبب تأخيره فلم يصل الظهر فى جماعته الأولى ؟

فقال عمر :

كانت جاريتى تمشط شعرى .

فقال له أستاذه :

أبلغ بك حب تصفيف شعرك أن يؤخرك عن صلاة الجماعة !

وكتب إلى أبيه بذلك .

فما كاد عبد العزيز يقرأ رسالة صالح حتى أرسل فورًا إلى عمر رسولًا يحذره من تأخير الصلاة عن أول ميعادها ، وألا يراسله حتى يحلق شعره .

راح عمر يقضى وقته مع صالح بن كيسان ، ويتلقى عنه العلم ، وقد أعجب ابن كيسان بصلاح عمر وتقواه ، وخشيته من الله رغم صغر سِنِّهِ وقلة معلوماته .

* * *

لم يكتف عمر بتلقى العلم على أستاذه ابن كيسان ، بل كان يستمع إلى الذين يلقون دروسهم فى المسجد النبوى ، وإلى حلقات العلم فى كل مكان فى أنحاء المدينة ، وكانت المدينة فى ذلك الوقت قبلة العلماء والفقهاء وطالبى العلم ، ويقطنها الكثير من التابعين وخيرة الصحابة ، وكلهم أفاضل ملتزمون من أمثال :

زيد بن ثابت ، وعبد الله بن عمر ، وعبيد الله بن عتبة ، وسعيد بن المسيب ، وعروة بن الزبير بن العوام ، ومحمد بن شهاب الزهرى ، وغيرهم .

كان عمر يجل أساتذته ، ويحترمهم ، وينزلهم المنزلة اللائقة بهم وكان أحيانًا يجلس مع أولئك الذين يذمون الإمام عليّ وينتقصون من قَدْرِهِ ، وأحيانًا كان يجاريهم فيما يقولون من غير أن يعرف عمر أن ذلك يسيء إلى الذين يحبون الإمام عليّ من أمثال أستاذه عبيد الله بن عبد الله ، وكان الأمويون يتعصبون ضد عليّ بن أبى طالب ، ويذكرون بالباطل كل ما ينقص من قَدْرِهِ ، ويحاولون النيل من سيرته العطرة ، ومنزلته التى لا تدانيها منزلة بما قدم من تضحيات لهذا الدين حتى لقد قالوا من أكاذيبهم : إن الله قد غضب على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ، ويقصدون أن الله قد غضب على عليّ بن أبى طالب .

بلغ عبيد الله أن عمر يشترك مع بعض الأمويين فى مثل هذه الأكاذيب ، فلما أتاه عمر ليسأله عن بعض مسائل العلم ، أعرض عنه عبيد الله ، وقام يصلى فأطال الصلاة ، وعمر ينتظره ، فلما سلَّم أقبل على عمر مغضباً ، وقال له :

متى بلغك أن الله غضب على أهل بدر بعد أن رضى عنهم ؟

سكت عمر ، ومر بخاطره سريعًا ما يرمى إليه عبيد الله ، وأنه أخطأ فى حق الإمام عليّ بالذات ، فهو وحده المقصود بالتنقيص من أهل بدر وقد رضى الله عنهم ، وكيف يتابع المتعصبون من الأمويين حملتهم على الإمام ؟ وكيف يجرى على لسانه ذم رجل ممن رضى الله عنه ؟ فقال معتذرًا :

معذرة إلى الله ، ثم إليك ، والله لا أعود .

* * *

عرف عمر بعدُ السبب الذى من أجله يتعصب بنو أمية ضد عليّ رضى الله عنه ؛ لأنهم لو لم يفعلوا ذلك لانصرف الناس عنهم لمكانة عليّ وأولاده من بعده لقرابتهم من الرسول ﷺ ، ثم لما يتميزون به من علم وحسن خلق وتمسك بمبادئ الدين القويمة .

ثم تفرغ عمر لدراسة تاريخ الحقبة التى قفز فيها بنو أمية حتى توصلوا

إلى الحكم والطريق الذى سلكوه حتى تمكنوا من توطيد أقدامهم ، والكيفية التى اتبعوها فأخضعوا بها الناس وأسسوا دولتهم .

لقد تجرد عمر من القرابة التى تربطه ببنى أمية ، ووضع أمامه ميزان الحق والعدل ، وما تدعو إليه قيم ديننا الحنيف ، وضع أمامه — مع صغر سنه — حق الله وعاقبة الظلم والبغى والتجبر وشهوة الاستيلاء على الحكم ، والمحافظة عليه .

وماذا يفعل عمر ؟ وسجل التاريخ يتراءى أمامه ، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا إلا الإنكار لما حدث .

فعل معاوية ما فعله من توطيد للحكم ، ونقله إلى ابنه يزيد ، وما فعله يزيد بأهل المدينة من قتل ونهب واغتصاب استجارت منه الأرض والسماء ، حتى أخذه الله أخذ عزيز مقتدر ، ولقد عبر عن كل هذا معاوية الثانى بن يزيد حين طلبوه ليتولى الخلافة المغتصبة الظالمة فامتنع ، وقال كلمته الخالدة فى جموع المسلمين ، فماذا قال معاوية بن يزيد رضى الله عنه ، قال :

(إن جدي معاوية — ابن أبى سفيان — نازع الأمر أهله ، ومن هو أحق به منه لقرابته من رسول الله ﷺ وأسبقيته فى الإسلام ، وهو علىّ بن أبى طالب ، ثم تقلد أبى — يزيد بن معاوية — الأمر بعده ، فكان غير أهل له ، ركب هواه وأخلفه الأمل ... !

وإن من أعظم الأمور علينا علمنا بسوء منقلبه ، وقد قتل عترة رسول الله ﷺ وأباح الحرم ، وخرب المدينة ومكة ، وما أنا بالمتقلد أمركم ؛ ولا المتحمل تبعاتكم .. فاختاروا لأنفسكم) .

قال له أقاربه : وَلِّ أخاك خالدًا .

قال : **والله ما ذقت حلاوة خلافتكم حتى أتقلد وزرها .**

وبكى معاوية الثانى حتى جرت دموعه على خديه .

وبعد أن هدأت نفسه ، قال .. وكان مما قاله :

والله لئن كانت الدنيا خيرًا فقد نلنا منها حظاً ، ولئن كانت شرًا ، فكفى ذرية أبى سفيان ما أصابوا منها .

ألا فليصل بالناس حسان بن مالك ، وشاوروا فى خلافتكم رحمكم الله .

ومما يدل على صدق هذه الرواية أن معاوية بن يزيد رضى الله عنه دخل قصره ، فلزمه أيامًا حتى مات .

لقد عرف عمر تاريخ تلك الحقبة جيدًا ، واتخذ منها درسًا وعاه فى كل فترات حياته ، مما جعله يضع لنفسه منهاجًا يسير عليه ، فيظهر ذلك فى تصرفاته .

* * *

حفظ عمر القرآن وأجاده فى فترة وجيزة ، وكان نشيطًا يتردد على الفقهاء والعلماء والمحدثين يستمع إليهم ويناقشهم ، وكانوا يحبونه ويعترفون صراحة بذكائه ، وقدرته الكبيرة على فهم واستيعاب كل ما يسمع .. يقول عمر عن نفسه :

لقد رأيتنى بالمدينة غلامًا مع الغلمان ، ثم تاقت نفسى إلى العلم ، فأصبت حاجتى) .

وقال عن عمر أستاذه الكبير صالح بن كيسان :

(ما خبرت أحداً أعظم فى صدره من هذا الغلام)

دخلت عليه أمه يومًا وهو ما يزال غلامًا ، فوجدته يبكى فسألته :

ما يبكيك يا بنى ؟

قال :

لا شيء يا أماه إنما تذكرت الموت .

لقد كان مثلَه الأعلى وهو ما يزال غلامًا خاله عبد الله بن عمر ، فراح

يلازمه ، ويتأسى به حتى حقق كل ما كان يتتوق إليه من العلم والمعرفة والفقه .

* * *

كان من دواعى حب عمر للمدينة وأهلها حبه لرؤية خاله — وكان يناديه بخاله — والاقتداء به لما رأى فيه من تمسكه بأصول دينه ، لا يحيد عن ذلك قيد أنملة ، ومن تمسكه بالحق ، ومحاربته للظلم بكل أنواعه ، ووقوفه مع المظلوم وحفظه للسنّة ولما يرويه عن الرسول ﷺ ، ولما رأى فيه من عظيم الورع ، وصدق التقوى ، وعميق الإيمان .

راح عمر يلازم خاله عبد الله بن عمر ويتأسى به ، وكان كثيرًا ما يردد فى مجتمعه :

إنى آمل وأحب أن أكون مثل خالى .

* * *

دعاه أبوه لزيارة مصر ، ليراه ويطمئن عليه ، ويطلع على ما حصله من العلم والمعرفة ، وليرى مصر وما وصلت إليه من التقدم على يديه ، وليغرس فى نفسه أصول الحكم التى ينبغى للحاكم أن يسير عليها .

كان فرحًا بلقاء أبيه ، وبرؤيته لمصر وما فيها من خير ونعمة ، وأراد والده أن يعلمه شيئًا قد لا يكون موجودًا فى المدينة ، فرتب له خبراء من مدرسى الخيل ، والخبرة فى فنون الحرب والطعان والفروسية ، ونظم له رحلات ليجوب أرجاء البلاد ؛ ليرى ما فيها من خيرات ؛ وليتعرف على أحوال الناس وطباعهم ، ويدرك أسرار الحياة ومشكلاتها .. وزاد من إعجابه وحبه أن يقضىَ ساعات يتعلم فيها ركوب الخيل ، ويتمرن على الضرب والطعان .

وذات يوم وهو فى الإصطبل بين الخيول يعتنى بها ، ويسير بينها يمسح

أعرافها ، ويتتبع حركاتها، تحرك واحد منها فرمحه وشجه ، وكان معه أخوه الإصبغ ، فتركه والدم يسيل من جرحه ، وانطلق مسرعًا ليخبر أباه بما حصل لعمر ، وأسرع الغلمان فحملوا عمر إلى القصر ، فلما رأت الأم الدم يسيل من وجهه فزعت ، ودعت الطبيب ليضمد جرحه .

ولما بلغ الوالد الخبر أقبل مسرعًا يلوم أخاه الإصبغ ، ولكن الإصبغ فاجأه بقوله :

يا أبتاه لقد تمت الآية .

قال الأب :

أى آية يا إصبغ ؟

يا أبتاه ! إنها الخلافة ، فالناس ينتظرون أشج بنى مروان ، فقد تأكدت من دليل الخلافة ، وكنت أرى فى أخى كل الدلائل التى تدل على أنه سيلى إلا علامة الشجة فلما حصلت حمدت الله أنه سيكون منا من يلى الخلافة ويكون عادلًا .

فلما سمع الوالد هذا من ابنه كاد قلبه يطير من الفرحة ، وفكر أم عاصم بما سَمِعَتْ من أن أشج بنى مروان يكون خليفة يملأ الأرض عدلًا ، ففرحت ، ودعت الله أن يحقق له هذه الأمنية .

* * *

رجع عمر من مصر إلى المدينة ، وقد زوده أبوه بالنصيحة وما عنده من العلم والمعرفة ، فكان أكثر نشاطًا بما رأى وعلم .. رجع لينهل من علوم الدين من حديث وفقه حتى أصبح لا يبارى ، وقرب من مرتبة الاجتهاد ، ولم ينس عمر أن يحفظ الكثير من شعر العرب ، وأن يقوّم لسانه ، فلا نراه وقد أخذ عليه لحن فى القول وإن كان قد أخذ على بعض أمراء بنى أمية وبنى مروان ، وجاء فى بعض كتب الأدب أن الوليد بن عبد الملك ابن عم عمر وزوج أم البنين أخت عمر وقد تولى الخلافة بعد أبيه عبد الملك كان

لحانًا لا يحسن النحو ، فدخل عليه يومًا بعض الأعراب ، فتقرب إليه بقرابة بينه وبينه فقال له الوليد :

من ختنك ؟ وفتح النون فظن الأعرابى أنه يسأل عن الختان ؛ لأن هناك فرقاً بين فتح النون وبين ضمها فهى بالفتح عن الختان وبالضم عن القريب .

وهذا جهل بقواعد اللغة الذى لم يعرف عند عمر بن عبد العزيز ، فلقد أجاد اللغة وأجاد معها النطق ، ولم يعرف عنه أنه لحن ، لقد أجاد حفظ الشعر والأدب وكان الشعر يومئذ ثقافة العصر ولغته .

ثم إنه أصبح يأتم به الناس ، فيحسن الإمامة ؛ يقول أنس بن مالك :

(ما صليت وراء إمام بعد رسول الله ﷺ أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتى) يقصد عمر بن عبد العزيز .

ويقول ميمون بن مهران :

(ما كان العلماء عند عمر بن عبد العزيز إلا تلامذة)

ويقول مجاهد بن جبير :

(أتينا عمر نعلمه ، فما برحنا حتى تعلمنا منه)

ثم أجمع العلماء على علمه ومعرفته فقالوا فيه :

(ما التمسنا علم شيء إلا وجدنا عمر بن عبد العزيز أعلم الناس بأصله وفرعه)

* * *

لقد كانت رواية الحديث صفة العلماء المتمكنين من العلم ، والذين أخذوا بحظ وافر من كلام سيد المرسلين ﷺ ، فأقبل عليها عمر بن عبد العزيز وهو لا يزال فى أول شبابه يطلب الحديث فقد روى عن جمع من كبار التابعين .

روى عن سعيد بن المسيب ، وعبد الله بن إبراهيم بن قارط ، وكانت

روايته عن عبيد الله بن عتبة كثيرة يقول عمر بن عبد العزيز :

لقد رويت عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة أكثر ما رويت عن جميع الناس .

وروى أنه كان يقول :

لو كان عبيد الله حيّاً ما صدرت إلا عن رأيه ، ولوددت أن لى بيوم واحد من عبيد الله كذا وكذا ..

وأيضًا روى عن عمر قال :

كنت أصحب من الناس سراتهم ، وأطلب من العلم شريفه ، فلما وليت أمر الناس احتجت أن أعلم سفاف العلم ، فتعلموا من العلم جيده وسفسافه .

وكان من روايته للحديث ، ما رواه عن عبد الله بن عمر :

(إن الله تبارك وتعالى يحب الشاب الذى يفنى شبابه فى عبادة الله ، ويحب الإمام المقسط وأجره أجر من يقوم ستين عامًا .. يصوم نهاره ويقوم ليله) .

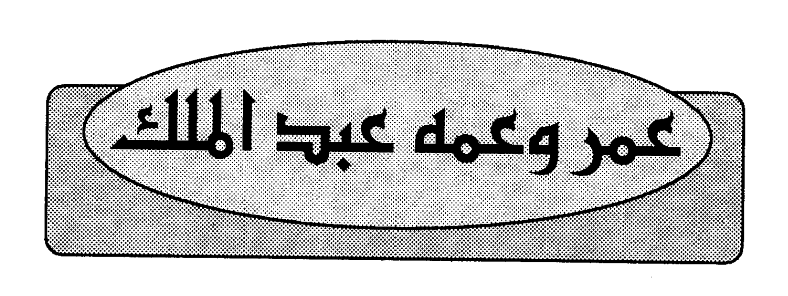
وروى تميم الدارى عن عمر بن عبد العزيز قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من لقى الله عز وجل بخمس لم يحجب عن الجنة : النصح لله عز وجل ، والنصح لكتاب الله والنصح لرسول الله ﷺ ، والنصح لأئمة المسلمين ، والنصح لعامة المسلمين » .

لم يكتف عمر بهذا القسط الكبير من العلم ، بل ظل يتعلم ويناقش حتى جاءه الموت .

* * *


عمر وعمه عبد الملك

عمر وعمه عبد الملك

كان الطريق الذى يسير فيه عمر بن عبد العزيز فى أول شبابه غير الطريق الذى يسير فيه شباب بنى أمية ، وكأنه بالنسبة لهم أمة وحده ؛ فهم يعيشون حياة اللهو والصيد ومجالس الشراب والغِناء ، ولا يحسبون للدين أى حساب إلّا بمقدار ما يرونه طريقًا يوصلهم إلى المناصب التى تعود عليهم بالوفير من المال ، والجاه والتحكم فى رقاب العباد .

أما عمر فكان طريقه الذى شغله هو القراءة والاستماع إلى العلماء فى نواحى الدين المختلفة : من فقه وحديث وقرآن ، ومن أدب وشعر ولغة ، ثم الانشغال بقضايا الحكم من عدل ، ورد للمظالم والحقوق ، ورد على الأمور التى يسأله الحكام عنها لا تأخذه فى الحق لومة لائم .

كان مستمسكًا بأصول دينه وما يدعو إليه من مبادئ سامية ، إمامه فى ذلك كتاب الله سبحانه وتعالى ، وسنة نبيه ﷺ ، وما كان عليه الخلفاء الراشدون ، لا يسكت على ظلم ، ولا يطاوع من يخالف شرع الله ، ولا يتأخر عن مساعدة مظلوم ؛ فكان دائمًا فى صفّه حتى ينال حقه .

كان ينادى بذلك فى كل وقت ، ومع كل إنسان صغر أم كبر حتى ولو كان من الخلفاء ، فكان يجاهر أمامهم بكلمته المؤمنة الصادقة الصريحة من غير أن يدور حولها أو يشير إليها من بعيد ، يشفع له قرابته من الحكام ، واحترامهم الشديد لعلمه ومعرفته ، فكانوا يتحملون أحيانًا شدته في الحق ، وتمسكه بالكلمة المخالفة لكلمتهم ، وكلهم أعمام وأولاد أعمام من خلفاء وأمراء ومن الذين بيدهم أمر الدولة فى الحل والربط ، بل وكثيرًا ما كانوا يستشيرونه فى أمور أحكامهم ، وما يقدمون عليه من أعمال .. يشفع له متانة أخلاقه ، وكثرة عمله ، وحسن مناقشته .

كانوا يعتقدون أن شجرته الأموية قد طُعّمت بفرع قرشى أصيل، فأثمرت وأينعت، وآتت أكلها أضعافًا مضاعفة.

* * *

كان يعيش فى صغره مع أبيه .. مرة فى مصر، وأخرى وحده .. طالبًا للعلم والمعرفة فى المدينة، وأحيانًا فى دمشق والشام.

كان جده الخليفة مروان بن الحكم قد جعل والد عمر يتولى الخلافة بعد أخيه عبد الملك، ولكن عبد الملك طمع فى أن يجعل ولاية العهد لابنه الوليد، وطلب من عبد العزيز أن يتنازل لابنه الوليد فى حياته.

فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز:

يا أخى! إن رأيت أن يصير الأمر لابن أخيك فافعل!

فلم يرد عليه عبد العزيز، ولم يعلن التمرد والعصيان، واعتبر عبد الملك ذلك مكرمة من أخيه .. ثم مات عبد العزيز، وخلت ولاية العهد للوليد، ولم يطلب أولاد عبد العزيز شيئًا، فكان لهذا وقع كبير على نفس عبد الملك.

* * *

فلما مات أخوه عبد العزيز، أرسل عبد الملك لابن أخيه عمر وهو فى المدينة: أن ائت إلى دمشق لتقيم معنا هنا، لتكون قريبًا منا، ولتعش مع إخوتك، ولنأخذ برأيك، ونشاورك فيما يستجد من أمور، فقد وصل إلينا مقدار علمك وذكائك.

وصل عمر إلى دمشق، وقربه الخليفة عبد الملك إليه، واهتم به وجعله واحدًا من أبنائه، ونحن لا نعرف السبب الأصلى الذى جعله يقرب عمر إليه:

أهى سيرته العطرة؟ أم هى عقدة الذنب التى عامل بها أخاه، ومحاولته

التخلص من ولاية العهد له ، ونقلها إلى ابنه الوليد ، أم هناك سبب آخر سوف تظهر الأيام ما كان يضمره الخليفة عبد الملك لابن أخيه ، فهل كان يخطط لزواج عمر ابن أخيه من ابنته فاطمة ؟ .. وهذا ما ستظهره الليالى والأيام .

* * *

كان للخليفة الموفق عبد الملك بن مروان أمسيات يحضرها العلماء والفقهاء والشعراء والأدباء ، ومن بيدهم أمور الدولة ، وتدور بينهم المناقشات فيديرها الخليفة بذكاء وعلم واقتدار فى كل فن .

سأل الخليفة يومًا جلساءه من الفقهاء والعلماء عن صفة أفضل الرجال ، فقالوا واختلفوا ، فقال الخليفة نفسه :

(أفضل الرجال من تواضع عن رفعة ، وزهد عن قدرة ، وأنصف عن قوة) .

وذكر الخليفة عبد الملك أمام الشعراء بيتًا من الشعر للشاعر الكبير نصيب فقال :

أهيم بدعدٍ ما حييت فإن أمت   أوكل بدعد من يهيم بها بعدى

فعاب الشعراء الشطر الثانى من البيت ، فسألهم الخليفة :

ما كنتم تقولون أنتم ؟

قال أحدهم :

كنت أقول :

فياليت شعرى من يهيم بها بعدى ؟

فضحك الخليفة عبد الملك قائلًا :

أنت أسوأ رأيًا من نصيب !

فقال الشعراء :

فماذا كنت تقول أنت يا أمير المؤمنين ؟

قال : أقول :

فلا صلحت دعد لذى خلة بعدى

قال القوم :

أنت أشعرنا يا أمير المؤمنين .

* * *

كان عمر بن عبد العزيز سعيدًا بلقائه مع هؤلاء الفقهاء والعلماء والشعراء ، وكثيرًا ما كان يعرض عليهم أفكاره مما قرأ أو سمع ، وكان يستمع إلى رأيهم ومناقشاتهم ، وقد يستفيد منهم ، أو يستفيدون منه ، وغالبًا ما كان عمه يثنى عليه ، ويُسرّ بما وصل إليه من تفكير أو استنتاج ، ويفرح أكثر حينما يلقى بما حفظ من الشعر ، أو ما يستدل به من حديث أو قرآن .

امتد حديث الخليفة عن الشعراء وأقوالهم ، وإذا بالخليفة يغير من وجهة الحديث إلى أن قال :

ما خير زوج يختاره الأب لابنته ؟

فأدلى الرجال بآرائهم : فمنهم من يرى المنصب الذى يوصل الرجل إلى مكانة عالية فى الحكم والسلطان ، ومنهم من يرى إمارة الأمصار ، ومنهم من يرى المال والجاه ، ومنهم من يرى الصحة والقوة والجمال ، فلما جاء دور عمر سكت ، ولم يقل شيئًا .

وتعجب القوم من سكوت ابن عبد العزيز وقال بعضهم :

إيه يا ابن عبد العزيز ! نراك تدير الكلام بين القوم ، فما الذى جعلك تصمت ، فلا تدلى برأيك ؟

قال عمر :

مثل هذا ليس لى رأى فيه !

لقد دار بفكره أمر ، وإن لم يبح بذلك لأحد مخافة أن تصدر منه كلمة تنم عما يكتمه في صدره من حب وهيام لفتاة بعينها فلعله كان يفكر في معشوقة شباب بنى أمية ومروان ، والتى كان الكل يتمنى أن يقترن بها .

كان كل واحد يتمنى أن يتزوج ابنة الخليفة لما تتميز به عن قريناتها جمالًا وعقلًا وذكاء .

أنهى القوم كلامهم ، وراحوا ينصتون كى يسمعوا رأى أمير المؤمنين فماذا قال الخليفة عبد الملك بن مروان ؟

قال : يعجبنى قول الحسن البصرى لما جاءه رجل يسأله فقال : إن كان لى بنية ، فمن ترى أزوجها ؟

قال الحسن :

زوجها ممن يتقى الله ، فإن أحبها أكرمها ، وإن أبغضها لم يهنها).

استحسن الجميع ما سمعوه من أمير المؤمنين ، ثم صمت القوم ، وكانت المفاجأة ، فقد التفت الخليفة إلى ابن أخيه عمر بن عبد العزيز ثم تكلم .. فماذا قال أمير المؤمنين ؟ قال :

يا ابن أخى ! قد زوّجك أمير المؤمنين ابنته فاطمة .

قام عمر ، وهو فى ذهول يحتضن عمه ، ويقبل وجهه ويديه ، والدموع تتساقط من عينيه ، ولسانه يلهج بالدعاء والشكر .

ثم قال مخاطبًا عمه :

(وصلك الله يا أمير المؤمنين ، فقد أجزلت العطية ، وكفيت المسألة) .

* * *

كان عمر يود لو ظفر بينت عمه زوجة له ، ولكنه لم يستطع أن يطلب ذلك ، لقد كان حيياً بالغ الحياء .. لقد نازعته الرغبة فى مفاتحة عمه ، ولكنه لم يبح بذلك لأحد وآثر السكوت حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولاً .

وكان عبد الملك ذا فطنة وعزيمة ، فكفى ابن أخيه مهمة الحرج ، ووفر عليه عقدة الحياء والخجل ، وكفاه الله ذل المسألة مهما كانت آثارها ، ففرق عظيم بين أن يسأل عمر ، وأن يجيبه عمه من غير مسألة .

أعجب الخليفة برد ابن أخيه ، وكان ردًا ينم عن ذكاء وبلاغة فائقة ، واستحسن منه ذلك ، فراح الخليفة يردده حتى حسده بعض أولاد عمه ، وقالوا :

إن عمر أعد هذا الرد وليس عنده ذكاء أو فطنة فأبى والدهم إلا أن يثبت لهم عكس ما هم عليه ، وأن عمر ليس من الذين يلقنون الكلام ، فيؤديه كما يرد منه ، لكنه نسيج وحده .. ألهمه الله الفصاحة ، وعلمه الحكمة ؛ فهو يتحدث بها ويعلمها .

* * *

انتهز الخليفة فرصة اجتماع أولاده يومًا وبينهم عمر ، فتوجه إليه عمه بالحديث ، فقال له :

كم نفقتك يا عمر ؟

فقال عمر :

الحسنة بين السيئتين يا أمير المؤمنين !

فانتبه عبد الملك إلى غرابة الجواب ، ولفت أنظار أبنائه إلى ذلك .. ثم قال :

وما ذلك يا عمر ؟

فقال عمر :

هى كما قال الله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[1] .

لقد أراد أن يقول عمر : إن نفقتى هى الاقتصاد ، والاقتصاد فضيلة بين طرفين متناقضين هما : الإسراف ، والبخل .

نظر عبد الملك إلى أولاده ، وكأنه تمنى لو كان واحد منهم يشبه عمر فى هذه الفطنة ، أو يجيب مثله بهذه الحكمة .. وقال لأولاده :

ترى مَنْ عَلَّمَهُ هذا ؟

* * *

أصبح عمر واحدًا من الذين يواظبون على حضور مجلس الخليفة ، فإذا تغيب لأمرٍ افتقده الخليفة سأل عنه ، وطلبه ليستأنس بقوله ورأيه وليشاركه المشورة فيما يجدّ من أحداث .

لقد ازداد عمر من حضوره هذا المجلس علمًا ومعرفة بما استمع من عمه وما جعله ينظر إلى عمه على أنه مثل أعلى .

كان ينظر إليه على أنه عالِم جدير بالثقة ، وعلى أنه راوٍ من رواة الحديث ، وأنه أديب على علم غزير فى الشعر والنثر وعالم متمكن من اللغة وضروبها كما أنه خطيب متمكن لا يجاريه إنسان آخر .

وإن كان عمر لا يوافقه فى بعض ما يصدر عنه من أحكام ، ثم ميله إلى الحجاج والدفاع عنه ، فقد كان يلتمس له بعض العذر .

* * *

---

(١) سورة الفرقان الآية : ٦٧ .

انشغل الخليفة بجهاز ابنته ، فطلب لها أحسن ما يجهز به أولاد الملوك ، وبنى لها قصرًا فخمًا بحديقة غَنَّاء بضاحية من ضواحى دمشق اسمها دابق ، وجعل ثوب الزفاف من الحرير المنسوج بخيوط الذهب .. المرصع باللآلئ ، وأهداها جواهر نفيسة بمائة ألف دينار !

وفى هذا القصر قضى العروسان أجمل أيام العمر ، ونعما بسعادة لم يعرفاها من قبل .

ولقد وهب الخليفة لعمر قطائع وضياع تُغِلّ له مالًا كثيرًا ، ويعيش هو وزوجه على غلتها .

وهب له إقطاعات فى الشام ضمها إلى الإقطاعات التى أهديت له من قبل فى بعلبك وغيرها من أرض الشام .

وفى الحجاز كان له السويداء وخيبر وفدك ، وكان له فى مصر قطائع ورثها من أبيه عبد العزيز وأيضًا كان له أراضٍ شاسعة فى اليمامة والبحرين .

لقد درّ عليه كل هذا أكثر من أربعين ألف دينار سنويًا .

* * *

قضى عمر وفاطمة أيامهما الأولى فى سعادة ، وفرح الخليفة لسعادتها وتأكد من علو مكانة ابن أخيه فى العلم والذكاء وأصول الحكم ، فأراد أن يدربه على الولاية ، ويصل ما كان يريد أن يقطعه من ولاية أخيه ، فعقد له على ولاية خناصرة .

وخناصرة هذه من أعمال حلب ، وقديمًا تغنى بها الشعراء فقد كانت ذات طبيعة جميلة ، ومن أجمل ما قيل فيها قول الشاعر الكبير أبى الطيب المتنبى :

أحب حمصاً إلىّ خناصرة وكل نفس تحب محياها
حيث التقى خدها وتفاح لبنان وثغر على محياها

وصفت فيها مصيف بادية　　شتوت بالصحصحان مشتاها
إن أعشبت روضة رعيناها　　أو ذكرت حلة غزوناها[1]

لقد كانت هذه الولاية فرصة أخذ فيها كل ما فى الحياة من متعة يجاوره فيها زوجه ابنة عمه فاطمة بنت الخليفة عبد الملك ، ربيبة الجمال والعز .

* * *

لم تمنعه تلك الولاية عن التردد على قصر عمه الخليفة ، فقد أصبح واحدًا من أولاده .. كان يحضر أحيانًا وقائعهم وخصوماتهم ، وكانوا يوكلون إليه فض الخلافات والمنازعات لما يعهدون فيه من عدالة وتمسك بالحياد التام ، وإعطاء كل ذى حق حقه .

وقع بين مروان بن عبد الملك وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية وبين أخيه سليمان بن عبد الملك ، ما مات بسببه مروان ، وكان من أحب ولد عبد الملك إليه ، وقد توفى فى حياة أبيه .

وكان سبب موته أنه وقع بينه وبين أخيه سليمان بن عبد الملك كلام ، وكان عمر ابن عمهم موجودًا معهم فعجل عليه سليمان وقال له : (يابن مُلْخِن أمه)[2] ففتح فاه ليرد على أخيه ، ويتعرض لأمه هو ، وكان إلى جانبه عمر بن عبد العزيز ، فأمسك على فيه ، ورد كلمته وقال له :

يا أبا عبد الملك أخوك إمامك ، وله السن عليك .

فقال مروان بن عبد الملك :

يا أبا حفص ! قتلتنى .

---

(١) ديوان المتنبى : شرح البكرى : ج ٤ ص ٢٧٢ .
الصحصحان : المكان المستوى . يقول أقمت صيفاً كصيف البادية ، وأقمت بالصحصحان شتاء كشتاء البادية ثم إننا نتتبع مساقط الغيث فنغير على من ينزل عليها .

(٢) لخن : نتن . ويقال فى السب : يا ابن اللخناء . والملخن : نتن المغابن : وهى مطاوى الجسد . التعازى للمبرد ص ١٦٣ تحقيق : إبراهيم محمد الجمل . مكتبة نهضة مصر بالفجالة .

قال عمر :
وما صنعت بك .
قال مروان :
رددت فى جوفى أحر من الجمر !

ومال لجنبه فمات ، وفيه يقول جرير يخاطب أخاه لأمه يزيد بن عبد الملك :

أبا خالد فارقت مروان عن رضىً
وكان يزين الأرض أن تنزلا معا

فسيروا فلا مروان لِلْحَىّ إن شكوا
ولا الرَكب إن أمسوا مُخفِّين جوَّعا[1]

أما أبوه عبد الملك فقد أمر غاسله إذا فرغ من جهازه أن يؤذنه ، ففعل ، فكشف عن وجهه وقال :

الحمد لله الذى يقتل أولادنا ونحبه[2] .

* * *

لم تغير صلة عمر بعمه الخليفة من مبادئه ، فهو الذى يدافع عن المظلوم ، ويهاجم الظلم ، ويدعو الخليفة إلى أن يتخلص من الظالم ، ويطرده من ولايته بل ويقتص منه .. وكان عمر بن عبد العزيز يكره الحجاج كرهًا شديدًا ، ويرى عزله من جميع مناصبه لشدته وقسوته وجبروته ، وبطشه بالناس ، ولكن الخليفة عبد الملك كان يوافق موافقة تامة على كل ما يفعله الحجاج ، ويرى أن الفضل الأكبر يرجع إليه فى تثبيت الحكم لدولة بنى أمية ، ولم يكن هذا يرضى عنه عمر ، فظل على كرهه وبغضه .

(١) البيتان فى التعازى للمبرد ص ١٦٣ تحقيق إبراهيم محمد الجمل ، ولا يوجدان فى ديوان جرير .
(٢) القصة موجودة فى التعازى للمبرد ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

هرب أحد علماء العراق من بطش الحجاج وظلمه .. لكنه لم يذهب بادئ الأمر إلى الخليفة بدمشق ، وإنما استجار بعمر بن عبد العزيز فأخذ عمر له الأمان ، ثم استقبله الخليفة ومعه عمر بن عبد العزيز ، وفى أثناء جلوسهم أقسم الخليفة للرجل أنه فى أمان ما دام فى جواره ، وذلك من أجل عمر .

وصادف أن جاء كتاب من الحجاج ، فأمر الخليفة بقراءته فإذا فيه :

إن الخليفة عند الله أفضل من الملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين ، وذلك أن الله — سبحانه وتعالى — خلق آدم بيده ، وأسجد له ملائكته ، وأسكنه جنته ، ثم هبط إلى الأرض ، وجعله خليفته ، وجعل الملائكة رسلًا له .

سر عبد الملك من الكتاب ، وسأل جلساءه عن رأيهم فيه ، فسكتوا إلا عمر قال :

يا عماه إنه لنفاق ! والنفاق من مناقب الحجاج ؟

فاتجه الخليفة إلى العالم العراقى ، فسأله عما كتبه الحجاج ، فقال العالم : أراه قد جعلك فى موضع مَلَكًا ، وفى موضع نبيًا ، وفى موضع خليفة فإن كنت مَلَكًا فمن أنزلَك ؟ وإن كنت نبيًا فمن أرسلك ؟ وإن كنت خليفة فمن استخلفك ؟ أعَنْ مشورة من المسلمين ؟ أم ابتززت الناس أمورهم بالسيف ؟

فقال الخليفة :

لقد أمنّاك فلا سبيل إليك ! .. والله لا تجاورنى بلدًا أبدًا .. فارحل حيث شئت .

قال الرجل :

قد اخترت مصر .

قال عبد الملك :

فاترك الشام من فورك هذا .

وخرج الرجل تشيعه نظرات سخط من عبد الملك ، ونظرات إعجاب من عمر .

* * *

ظل عمر بن عبد العزيز يجهر بنقد الحجاج أمام عبد الملك ، ويتمنى أن يعزله ، ولكن عبد الملك كان يرفض ، ويوصى بنيه وعمر بإرضاء الحجاج ، فهو صاحب فضل عليهم ، ولولاه ما اجتمع المسلمون على قيادة واحدة ولظل المسلمون متفرقين أشتاتًا ، لا تجمعهم كلمة ، ولا توحدهم قيادة ، بل يتنازعون الأمر حتى جمعهم الحجاج على قيادة واحدة ، ولقد كان الخليفة عبد الملك كثيرًا ما يشيد بالحجاج فكان مما يقوله :

(... أكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم هذا الأمر ، ودوخ لكم البلاد ، وأذل لكم الأعداء) .

* * *

لقد ملّ الخليفة المناقشة مع جلسائه ، وأن يعرض أحد عليه رأيًا ، بل وأن يتكلم فى حضرته إلا إذا طلب منه ، حتى أمر الناس ألا ينصحوه فقال :

لا يأمرنى أحد بتقوى الله سبحانه وتعالى بعد مقامى هذا إلا ضربت عنقه .

ولم يعد أحد من الناس يجرؤ على أن يبادره بكلام أو يراجعه حتى أولاده إلا عمر ابن أخيه عبد العزيز ، فإنه لم يمنعه أن يعرض رأيه ، ولم يضق به ، فقد كان يحب حديثه ، ويحب ورعه وغضبه لما يعتقد أنه الحق .

غير أن عبد الملك كان يحاول أن يعلّم عمر أن صناعة الملك تفرض أحيانًا ما يأباه القلب الرحيم ، فللسياسة ضرورات تبيح كثيرًا من المحظورات .

قال عمر لعمه عبد الملك :

(إن الإمامة قامت على الشورى والعدل والإحسان والرحمة) .

وألح عمر إلى ما يصنعه الحجاج من أنه يقتل بالظن حتى الأسرى وأنه يغدق الأموال على أتباعه ، وألح عمر على الخليفة فى عزل الحجاج .

قال الخليفة : ليس الآن وقت العزل لكنه سيكتب إليه .

وطاوع الخليفة ابن أخيه وكتب إليه هذه الرسالة :

أما بعد :

فقد بلغ أمير المؤمنين إسرافك فى الدماء، وتبذيرك فى الأموال ، ولا يحتمل أمير المؤمنين هاتين الخصلتين لأحد من الناس ، وقد حكم عليك أمير المؤمنين فى القتل الخطأ بالدية ، وفى القتل العمد بالقود ، وفى الأموال بردها إلى مواضعها ، ثم العمل فيها برأيه ، فإنما أمير المؤمنين أمين الله ، وسيان عنده منع الحق وإعطاء باطل ، فإن كنت أردت الناس له فما أغناه عنك ، وإن كنت أردتهم لنفسك فما أغناك عنهم .

وسيأتيك من أمير المؤمنين أمران :

لين وشدة فلا يؤنسك إلا الطاعة ، ولا يوحشنك إلا المعصية ، وظن بأمير المؤمنين كل شىء إلا احتمالك على الخطأ .

فإن تر مِنّى غفلة قرشية ... فيا ربما قد غص بالماء شاربه
وإن تر مِنّى وثبة أموية ... فهذا وهذا كل ذا أنا صاحبه

فكتب إليه الحجاج :

أما بعد :

فقد أتانى كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه سرفى فى الدماء، وتبذيرى فى الأموال ، ولعمرى ما بلغت فى عقوبة أهل المعصية ما هم أهله ، وما قضيت حق أهل الطاعة بما استحقوه ، فإن كان قتلى أهل المعصية إسرافًا وإعطائى

أولئك المطيعين تبذيرًا ، فَلْيُوغْنى [illegible] ؤمنين ما سلف ، وليحدّ لى فيه حدًا أنتهى إليه إن شاء الله ، ولا قوة إلا بالله .. ووالله ما أصبت القوم خطأ فآذيتهم ولا ظلمتهم فأقاد بهم ، ولا أعطيتهم إلا لك ، ولا قتلت إلا فيك .

إذا أنا لم أتبع رضاك وأتقى ... أذاك فيومى لا تزول كواكبه
وما لامرئ بعد الخليفة جُنَّة ... تقيه من الأمر الذى هو كاسبه
أسالم من سالمت من ذى قرابة ... ومن لم تسالمه فإنى محاربه
إذا قارف الحجاج منك خطيئة ... لقامت عليه فى الصباح نوادبه

فلما قرأ الخليفة كتاب الحجاج قال :

(خاف صولتى ولن يعاد لشىء أكرهه)

والأمر العجيب فى مسلك الحجاج أنه لا يخاف إلا الذى يتولى الخلافة ، وليس له مطمع فى ملك أو مال ولقد مات فقيرًا معدمًا .

* * *

ونادى على الخليفة منادى الموت ، ويومًا بعد يوم اشتد عليه المرض وثقل ، فلزمت فاطمة ابنته حجرته لا تبارحها ، ودخل عليه ابنه الوليد ولى عهده ، فسأل فاطمة :

كيف أصبح أمير المؤمنين ؟
هو أصلح مما كان .

فلما خرج الوليد ، همهم عبد الملك وهو يتأمله ويتأملها ، وقال :

ومستخبر عنا يريد بنا الردى ... ومستخبرات والدموع سواجم

* * *

ثم أصبح فى يوم وقد وجد نفسه فى صحة وفى قدرة على الكلام ،

فجمع أولاده فأوصاهم وكان مما قاله :

أوصيكم بتقوى الله فإنها عصمة باقية ، وجُنَّة واقية ، والتقوى خير زاد ، وأفضل فى الميعاد ، وأحصن كهف ، وأزين حلية .. ليعطف الكبير منكم على الصغير ، وليعرف الصغير منكم حق الكبير مع سلامة الصدور ، والأخذ بجميل الأمور ، فإنكم إن فعلتم ذلك كنتم للعز خُلفاء وهابتكم الأعداء .

إياكم والتباغى والتحاسد فإن بهما هلك الملوك الماضون وذوو العز المتكبرون .

انظروا يا بَنىَّ مسلمة بن عبد الملك فاصدروا عن رأيه ، فإنه نابُكُم الذى تفتَّرون عنه ، ومِجنّكم الذى تستجنون به ، وأكرموا الحجاج فإنه الذى وطأ لكم المنابر ، وكفاكم قحم تلك القناطر ، كونوا أولادًا بررة ، ولينوا فى شدة .

ثم رفع رأسه إلى الوليد فقال : **لا أُلْفِيَنَّكَ يا وليد إذا وضعتنى فى حفرتى تعصر عينيك كما تفعل الأمة بل شمر وأتزر ، والبس جلد نمر ، وادع الناس إلى البيعة فمن قال بعنقه هكذا ، فقل بالسيف هكذا .**

أوصيك بأخيك عبد الله بن عبد الملك وبعمر بن عبد العزيز خيرًا ، لا تعزلهما ، ولا تستبدل بهما ، وأوصيك بابن عمنا هذا خيرًا – يعنى على بن عبد الله بن العباس – فأما الحجاج فلست تستغنى عنه .

* * *

ثم دعا بقداح بِعِدَّةَ ولده ، فأمر بهما فجمعت ، ثم دفعها إلى الوليد فقال : اكسرها .

فلم يقدر على ذلك .. فدفعت إلى آخر ، ثم آخر حتى استقراهم جميعًا ، فأعياهم كسرها ، فأمر به ففرقت ثم دفع إلى كل واحد منهم

انفوا الضغائن عَنْكُمُ وعليكمُ — عند المغيب وفى الحُضور الشُّهَّدِ
بصلاح ذات البين طول بقائكم — إن مُدَّ فى عمرى وإن لم يُمْدَد
فلمثل ريب الدهر ألف بينكم — بتواصل وتراحم وتودد
حتى تلين قلوبكم وجلودكم — لِمسوَّد منكم وغير مُسَوَّد
إن القِداح إذا اجتمعن فرامها — بالكسر ذو حنق وكسر أيد
عزّت فلم تكسر وإن هى بددت — فالوهن والتكسير للمتبدد[1]

* * *

ثم خاطب عمر بن عبدالعزيز فقال :

يا أبا حفص استوصى خيرًا بأخويك الوليد وسليمان ، وإن ذلا فشلهما ، وإن مالا فأقمهما ، وإن غفلا فذكرهما ، وإن ناما فأيقظهما ، وقد أوصيتهما بك ، وعهدت إليهما ألا يقطعا شيئًا دونك .

فقال عمر :

يا أمير المؤمنين ! أوصهما بكتاب الله فليقيماه فى عباده وبلاده وبسنة رسول الله ﷺ فليلزماها ، ويحملا الناس عليها .

فقال عبد الملك :

قد فعلت ، ووليى فيكم الله الذى نزل الكتاب ، وهو يتولى الصالحين وسكت عبدالملك هنيهة ، ثم قال :

وقد علمت — يا عمر — مكانة فاطمة من قلبى ، وإنى آثرتك بها على جميع آل مروان لفضلك وورعك ، فكن عند ظنى بك ، ورجائى

(١) هذه الأبيات للشاعر ابن أبى أعلى الشيبانى . والخطبة ذكرها (المبرد) فى كتابه التعازى ص ١٤٣ ، ١٤٤ تحقيق إبراهيم محمد الجمل (مطبعة ومكتبة دار نهضة مصر بالفجالة) .

فيك ، وقد علمت أنك غير مقصر ، ولا مضيع حقها ، ولكن الله قد قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين .

ثم أدار رأسه بينهم جميعًا وقال : قوموا عصمكم الله وكفاكم .

* * *

ثم جاءه داعى الموت ، فلبى النداء وذهب لحساب ربه ، وتولى الخلافة بعده ابنه الوليد ، وكان قد عقدها له بعد موت عمه عبد العزيز ، وما كاد يستقر على سرير ملكه حتى جاءه إخوته وعلى رأسهم ولى عهده سليمان أخوه ، وابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز ، فقال سليمان :

عزل الحجاج ، والانتقام منه من طاعة الله ، وتركه من معصية الله .

فسكت الوليد لحظة ، ثم قال :

سننظر فى الأمر ، وسترون إن شاء الله ، وآثر الوليد أن ينتظر .

كتب الحجاج إلى الخليفة الوليد ، وقد رأى الإجماع على بيعته فى كل البلاد ، لم يختلف عليه أحد .

أما بعد :

فإن الله تعالى استقبلك يا أمير المؤمنين فى حداثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة قبلك من التمكين فى البلاد والملك للعباد ، والنصر على الأعداء ، فدع عنك محبة الناس وبغضهم وسخطهم .. والسلام .

فلما قرأ الخليفة الوليد كتاب الحجاج ، هتف سليمان أخوه ، وعمر ابن عبد العزيز ابن عمه قائلين :

- إن هو إلا منافق .

* * *


عمر أميراً للمدينة

عمر أميرًا للمدينة

قبل أن يلى عمر بن عبد العزيز إمارة المدينة مرت بها أيام سود كقطع الليل ، فعندما مات الخليفة معاوية بن أبى سفيان كان قد اختار لولاية العهد من بعده ابنه يزيد بن معاوية ، ولما طلب من أهل المدينة أن يبايعوه امتنعوا ، وطردوا عامِلَهُ ، وضيقوا على من كان فيها من بنى أمية الخناق ، فبعث إليهم مسلم بن عقبة المرى ، وكان من جبابرة العرب ودهاتهم ، فحاصر المدينة من جهة الحرّة ، ثم فتحها ، وأباحها للجند ثلاثة أيام : فقتلوا ونهبوا واغتصبوا .

وقد استشهد فى تلك المعركة التى كانت شرًا ووبالًا على الإسلام والمسلمين زهرة شباب أهل المدينة عشرة آلاف رجل .. منهم ثمانون من صحابة رسول الله ﷺ ، ولم ينج إلا آل البيت إذ اعتزلوا الفتنة ، وأغلقوا عليهم دورهم !! .

* * *

كان أهل المدينة فى كرب وغم مما أصابهم على يد يزيد بن معاوية فلم يهتموا كثيرًا بمجئ الوالى أو خروجه ، فقد تولى إمارة الحجاز بما فيه المدينة الحجاج بن يوسف الثقفى ، وكان له مواقف مع أهلها وختمت إمارة المدينة قبل مجئ عمر بن عبد العزيز بولاية جبار مستبد هو هشام بن إسماعيل ، وكان عاتيًا شقيًا تولى إمارتها أربع سنوات .. أهان فيها أهل المدينة ، وآل بيت رسول الله ﷺ ، وآذاهم أبلغ الإيذاء .. كان يسب على بن أبى طالب وأولاده على منبر مسجد المدينة ، ولم يستطع أحد أن يعارض أو يتكلم خوفًا من أن ينزل به العقاب .

تألم سعيد بن المسيب من هذا السب واللعن ، فماذا قال سعيد رضى الله عنه ؟ قال :

استغفر الله .. فأمر هشام رجاله بمراقبته حتى إذا صدرت منه كلمة أو إشارة أن يحصبوه بالحصى ، ومما يدل على فُجْر هشام هذا وفسقه أنه طُلِب من سعيد بن المسيب أن يبايع للوليد فى حياة عبد الملك ، فقال سعيد بن المسيب لهشام بن إسماعيل :

إن البيعة لا تصح والخليفة موجود ، وإنما تكون بعد موت الخليفة . فماذا صنع به هشام هذا ؟

جَلَد سعيد ، وطاف به رجال هشام فى طرقات المدينة شبه عريان .

تألم أهل المدينة زيادة على ما أصابهم فى حكم بنى أمية .. لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئًا خوفًا من الإهانة والعذاب والتشريد .

لقد اتجهوا إلى الله بالاستغاثة والدعاء أن ينقذهم مما هم فيه من ظلم وطغيان حتى كشف الله غمتهم باختيار عمر بن عبد العزيز أميرًا على المدينة .

* * *

كان الخليفة الوليد بن عبد الملك يعلم جيدًا ما يعانيه أهل المدينة من ولاتها ، وكان يعرف أنهم فى هم وغم فأراد أن يخفف من مصابهم ، وأن يختار لهم من يمكن أن يزيح آلامهم ومتاعبهم فاختار لهم ابن عمه وزوج أخته عمر بن عبد العزيز وهو على علم تام بحبه لأهل المدينة ، وحب أهل المدنية له أيام دراسته بالمدينة ، فكان اختيارًا موفقًا .

وصل عمر ومعه زوجته فاطمة بنت الخليفة عبد الملك وأولاده إلى المدينة ليلًا ، ونزل فى دار جده مروان بن الحكم ، وطار خبر وصوله إلى كل بيت من بيوت أهل المدينة ، فما أن فرغ الناس من صلاة الصبح حتى امتلأت ساحة القصر بأهل المدينة نساءً ورجالًا وشبان وشابات ، وهم

يبكون ويصرخون معلنين غضبهم ولعنهم أولئك الذين دنسوا مدينة رسول الله بالنهب والسلب والاغتصاب والقتل .

بكى عمر بن عبد العزيز لبكائهم بكاء مرًا ، وتوجه إلى الله سبحانه وتعالى بالتضرع والدعاء أن يوفقه لجبر هذه القلوب الكسيرة ، وإنه ليشعر بالعار والخزى من جراء ما فعله بنو عمه من آل أبى سفيان بأهل المدينة .

* * *

عمل عمر على أن يأسو الجراح ، فقد أرسل إلى كل من له مظلمة أن يتقدم بها إليه ، وسوف يعمل ما أمكن على إزالتها ، وعقاب الظالمين الذين كانوا سببًا فى خلقها ، وأن ينزل بالمفسدين أشد العقاب من جراء ما اقترفوا .

كان أول ما بدأ به محاكمة هشام بن إسماعيل والى المدينة السابق ، فهو رأس الخطيئة .. كتب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق أن يأمر بعزل هشام وأن يؤخذ بما اقترفت يداه طوال حكمه الأربع سنوات ، والتى أذل فيها أهلها وآذاهم ، وسامهم فيها سوء العذاب .

رد الخليفة على عمر يأمره بأن يوقف هشامًا هذا عند دار الإمارة ؛ ليقتص منه الناس الذين ظلمهم وأهانهم من أهل المدينة .

أوقفه الأمير عمر عند دار الإمارة ، ونودى فى أرجاء المدينة من كان له مظلمة عند هشام الوالى فليأت ليعرض مظلمته .

مر الناس على هشام وهم يسبونه ويلعنونه ، ومنهم من أبدى مظلمته ، وطلب أن يأخذ حقه منه ، ومنهم من طالب بالقصاص ، وحضر على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، وزين العابدين وجمع من آل بيت النبوة ، فطالما سبهم ولعنهم من أعلى منبر مسجد الرسول ﷺ ، قال علىّ بن الحسين مخاطبًا هشام بن إسماعيل :

لن نسب أو نلعن ، وإنما نحفظ لساننا وأنفسنا من سوء الكلمة ، ونكلك إلى الله ليتولى القصاص منك .

وكذلك فعل التابعى سعيد بن المسيب راوى حديث رسول الله ﷺ ، الذى لم تفارقه صلاة جماعة فى مسجد الرسول ﷺ طيلة حياته ، والذى لم يتصل بخليفة أو أمير لأمر من أمور الدنيا ، وكان دائم الاعتكاف والتهجد ، وكان هشام قد آذى سعيدًا كثيرًا .

جمع سعيد أقاربه وخاصته وقال لهم :

لا يعرضَنَّ أحد منكم لهذا الرجل انتقامًا لي ، فقد تركت ذلك لله ، وأما كلامه فلا أكلمه أبدًا .

ظل هشام موقوفًا حتى مله الناس ، وشفى الله صدور الذين آذاهم هشام ، وأذهب غيظ قلوبهم ، ثم سرحه عمر بن عبد العزيز ، وقد خفف عن الناس ما يحملون له من كره وانتقام .

* * *

حينما تولى عمر إمارة المدينة كان سنة ٧٨هـ ، وكان فى الخامسة والعشرين ، وفى سنة ٩١هـ ضمت إليه ولاية مكة والطائف فأصبح عمر بذلك أميرًا على الحجاز كله .

كان اختيار الخليفة الوليد لعمر بن عبد العزيز أميرًا على المدينة يدل على ذكاءٍ ونظرةٍ بعيدةٍ لاسترضاء أهل المدينة ، وهم أعرف الناس بأخلاقه ودينه ، فلقد عاشرهم من قبل ، واختلط بهم أيام دراسته بالمدينة ، بل وأكثر من ذلك فهم يعرفون أجداده لأمه ، وصلته بآل الخطاب ؛ لذلك فقد أحبوه وأنزلوه المنزلة الكريمة ، فخفف من الكره والبغض الذى قابلوا به بنى أميه .

* * *

لم ينفرد عمر بالحكم ، فهو يكره الاستبداد بالرأى ، والحكم المفرد ،

فالحكام الذين ينفردون بأحكامهم كثيرًا ما يخطئون ، ويترتب على أحكامهم الظلم والجور ، لكنه ألزم نفسه باتباع الشورى ، وفى يوم من أيامه بعد أن صلى الظهر دعا عشرة من فقهاء المدينة وعلمائها إلى دار الإمارة وعرض عليهم رأيه فى أمور الحكم ، وأراد أن يستفيد من خبرتهم وعلمهم وآرائهم ، وبدأ الكلام بقوله :

(إنى دعوتكم لأمر تؤجرون عليه ، وتكونون فيه أعوانًا على الحق ، وما أريد أن أقطع أمرًا إلا برأيكم أو برأى من حضر منكم ، فإنى رأيت أحدًا يتعدى أو بلغكم من عامل لى ظلامة ، فأناشدكم بالله على من بلغه ذلك إلّا بلغنى)

خرجوا من عند عمر ، وهم يرجون منه كل خير ، هؤلاء العشرة الذين اختارهم الأمير ممن أجمع عليهم أهل المدينة ، ووصفوهم بالتقوى والورع ، وهم :

عروة بن الزبير ، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة ، وأبو بكر بن عبد الرحمن ، وأبو بكر بن سليمان بن أبى خيثمة ، وسليمان بن يسار ، والقاسم بن محمد ، وسالم بن عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عبد الله ابن عمر ، وعبد الله بن عامر بن ربيعة ، وخارجة بن زيد .

رحب الفقهاء والعلماء بما اتبعه عمر فى حكمه ، وكان أول من سار فى هذا الطريق ، فلم يتعودوا منذ زمن الخلفاء الراشدين من حكام بنى أمية إلّا أنهم يستبدون برأيهم ، وينفذون ما يتراءى لهم ، ضاربين بكل رأى يخالفهم عرض الحائط ، ولو كان من صميم شريعة الله .

لقد أثنوا على عمر كثيرًا ، وقدروا فهمه العميق لأصول التشريع التى ينبغى للحكام أن يسيروا عليها ، ولنظام الحكم أن يتبعوه ، وحمدوا الله أن وجد من يفهم نظم الحكم فى الإسلام ، بأن لا يقطع أمرًا إلا بعد المشورة ، وما ينتهى إليه الرأى بعد المشورة يكون ملزمًا لولى الأمر .

لما رأى الخليفة أن المدينة بدأت تسترد حالتها الطبيعية فى ظل إمارة عمر بن عبد العزيز أضاف إليه بقية أرض الحجاز مكة والطائف ، وبدأ فى إصلاحاته ، فأطلق السجناء الذين سجنوا فى سجون المدينة ومكة والطائف فى عهود الظلم والبغى ، ومعظمهم من أصحاب الرأى والعقيدة التى يخالف فيها أصحابها ما عليه بنو أمية .

كتب الخليفة الوليد إلى عمر يطلب إليه أن يعمر المدينة ، وأن يبدأ فى توسعة المسجد النبوى وعمارته ، وبمجرد أن وصلته رسالة الخليفة .. دعا عمر مجلس الشورى من العلماء والفقهاء ، ومعهم أعيان الناس من أهل المدينة ، وقرأ عليهم كتاب الخليفة الذى يأمره فيه بإدخال حجرات أزواج النبى ﷺ فى المسجد ، وأن يشترى ما حول المسجد من المبانى فيهدمها ، ويضمها إلى المسجد ، فمن أبى من أصحاب المبانى قوّم ملكه قيمة عادلة ، ودفع له الثمن ، ولقد فعل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهما مثل ذلك .

رد عمر بن عبد العزيز على الخليفة الوليد بن عبد الملك بأنه استشار الناس ، فرفضوا لأنهم يؤثرون إبقاء حجرات أمهات المؤمنين كما تركها الرسول ﷺ ، وقد انضم إليهم الفقهاء العشرة مؤثرين أن تظل الحجرات كما هى بسقوفها القصيرة التى صنعت من جريد النخل ، وحيطانها التى بنيت من اللَّبِن وعلى أبوابها المسوح .

وقالوا :

إن تركها على حالها أولى لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون كى يتعظوا ، ويعتبروا ، ويتعرفوا على ما كان عليه الزوجات ، فيكون ذلك أدعى إلى الزهد فى الحياة الدنيا ، وإلى الانصراف إلى أعمال الآخرة .

ولكن الخليفة أرسل إليه يأمره بالهدم وبناء المسجد ، كما أمره بأن

يوسعه من قبلته ، وسائر نواحيه حتى يكون مائتى ذراع ، وأن يعلى سقوفه ، فلم يجد عمر حيلة إلا أن يوافق الخليفة على ما ذهب إليه .

* * *

بدءوا فى الهدم ، فصاح أهل المدينة ومن وجد منها من المسلمين ، وتباكوا ، وتذكروا يوم مات النبى ﷺ ، وأجاب من له ملك متاخم للمسجد للبيع ، فاشترى عمر منهم ، وأرسل إليه الخليفة عمالاً من دمشق شاركوا فى الهدم والبناء .

ثم شرعوا فى بناء المسجد ، واعترض سعيد بن المسيب دخول حجرة السيدة عائشة فى المسجد ، فقد خشى أن يتخذ القبر مسجدًا ، ولكن عمر قال :

سنجعل للحجرة مكانًا مستقلًا ، وتم البناء على الهيئة التى أرادها الخليفة الوليد ، وكان عمر يشرف بنفسه على عملية البناء والتوسعة .

ويقال :

إن الخليفة أرسل إلى ملك الروم يخبره بتعمير المسجد ، وطلب منه أن يمده بعمال معماريين مهرة ، فأمده بمائة منهم ، وأرسل إليه حمل أربعين بعيرًا من الفسيفساء ليزين بها أرض المسجد ، ومائة ألف مثقال من الذهب هدية من ملك الروم إلى ملك المسلمين يخصصها لتوسيع المسجد النبوى .

* * *

ومن العلامات المضيئة فى فترة تولى عمر بن عبد العزيز صلته بالعابد الورع سعيد بن المسيب العالم الذى لم يأبه بتولى الأمويين الحكم ، ولم يجاريهم ، ووقف ضدهم بقلبه ، وهو يعلم أن هذا أضعف الإيمان .. لقد حاربهم بالكلمة الصريحة ، ولمكانته فى قلوب أهل المدينة حاول خلفاء بنى أمية ترضيته ، فأرسلوا إليه نيفا وثلاثين ألفاً ليأخذها لنفسه فقال :

(لا حاجة لى فيها ، ولا فى بنى مروان حتى ألقى الله ، فيحكم بينى وبينهم) .

كان سعيد بن المسيب عف اللسان .. فبالرغم مما قاساه أهل المدينة على يد بنى أمية لم يبالغ فى إظهار جرائمهم ، فإذا ما تعرض القوم لذمهم وإظهار مفاسدهم كان يقول :

(لا تملأوا عيونكم من أعوان الظَلَمَة إلا بالإنكار فى قلوبكم .. لكيلا تحبط أعمالكم الصالحة) .

كان يرى أن مد الأيدى إلى الخلفاء والأمراء ، وقبول هداياهم هو سبب كل فساد ، فلم يقف أمام خليفة أو أمير إذا استثنينا عمر بن عبد العزيز ، وكان يحبه لورعه وعبادته وعلمه ، ومن أقواله :

(من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ، وإن الدنيا نذلة ، وهى إلى كل نذل أميل)

كان سعيد يعيش من مكسب ماله الذى يتجر به فى الزيت ، فيكفى نفسه مد اليد ويقول :

(اللهم إنك تعلم أنى لم أمسكه بخلًا ولا حرصًا عليه ، ولا محبة للدنيا ونيل شهواتها ، وإنما لأصون به وجهى عن بنى مروان حتى ألقى الله ، فيحكم فىّ وفيهم ، وأصل منه رحمى ، وأؤدى منه الحقوق التى فيه ، وأعود منه على الأرملة والفقير والمسكين واليتيم والجار) .

لقد أحب من الأمويين عمر بن عبد العزيز وحده ، فقد عرفه طالب علم بالمدينة ، فلما ولى أمر الحجاز زاره ، ولم يزر من قبله خليفة أو أميرًا وبلغ من احترام عمر وتقديره لسعيد بن المسيب أنه كان إذا فرغ من تفقده العمل يجلس فى الروضة الشريفة يرتل القرآن الكريم ترتيلًا جيدًا ، وكان حسن الصوت .

جلس مرة يرتل القرآن الكريم ، فارتفع صوته ، وسعيد يتهجد غير بعيد عنه ، مستغرقًا فى تهجده ، فلم يعرف أن عمر هو الذى يرتل القرآن فقال سعيد لغلامه :

(نح هذا القارئ عنا فقد آذانا بصوته)

واستمر عمر فى قراءته الخاشعة ، فصاح سعيد قائلًا :

(ويحك يا غلام ! ألم أقل لك نح هذا القارئ عنا)

فقال غلامه :

ليس المسجد لنا .

ولكن سعيدًا أمر غلامه مرة أخرى أن ينحى القارئ بعيدًا ، فلا يفسد عليه تهجده .

سمع عمر ما قاله الغلام ، فأخذ نعليه فى صمت ، وتنحى بعيدًا عن سعيد ، وولى وجهه شطر القبلة ، وأخذ يدعو ، وكان مما قاله :

(اللهم ارضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ، ولا تأخير ما عجلت .. اللهم ألبسنى العافية حتى تُهنئنى المعيشة ، واختم لى بالمغفرة حتى لا تضرنى الذنوب ، واكفنى كل هول دون الجنة حتى تبلغنيها برحمتك يا أرحم الراحمين) .

* * *

كان بين الأمويين وبنى هاشم عداء مستحكم ، وكان الأمويون يسبون عليًا وأولاده على المنابر ، ولا ينسى التاريخ ما فعله يزيد بن معاوية بأولاد على فى كربلاء ، وكان ولاة المدينة يسيرون على ما يأمرهم به خلفاء بنى أمية إلا عمر بن عبد العزيز فقد خالف ما يدعون إليه ، وتقرب إلى أولاد علىّ وتفقه عليهم .

كان عمر يكثر من الجلوس إلى علىّ زين العابدين بن الحسين بعد أن تلقى من معلمه عبيد الله درسًا فى البعد عن الخوض فى على بن أبى طالب .

لقد عكف على معرفة حقيقة الإمام ، وسبب الخلاف بينه وبين أهله الأمويين ، فتيقن أن الإمام من أفقه الناس وأعدلهم وأزهدهم ، وامتلأ قلبه بحب أهل البيت ، فكانت الساعات التى يقضيها فى رفقة علىّ زين العابدين ساعات عبادة وتحصيل .

كان علىّ هذا محترمًا مكرمًا فى عهد ولاية عمر فلم يتعرض له أموى بكلمة تسوؤه .. كان ثقة مأموناً كثير الحديث ، ورعًا عابدًا يخاف الله ويرعى حرماته .

احترق البيت الذى يقيم فيه وهو قائم يصلى ، فلم ينصرف .

قالوا له :

– ما لك لم تنصرف ؟

قال علىّ رضى الله عنه :

– إنى شغلت عن هذه النار بالنار الأخرى .

كان إذا توضأ يصفر لونه ، فإذا قام إلى الصلاة ارتعد ، فقيل له فى ذلك فقال :

ألا تدرون بين يدى من أقوم ومن أناجى ؟

وكان يقول :

إن قومًا عبدوا الله رهبة ، فتلك عبادة العبيد ، وآخرون عبدوه رغبة فتلك عبادة التجار ، وآخرون عبدوه محبة وشكرًا فتلك عبادة الأحرار .

أفلا يكون ذلك الرجل وأهله ، وأمثاله جديرين باحترام عمر بن عبد العزيز لهم وحبه وإخلاصه .

* * *

حج الخليفة الوليد بالناس ، وعمر بن عبد العزيز أمير على المدينة ، فلما فرغ من حجه ، وأراد زيارة المدينة خرج عمر لملاقاة الخليفة خارج المدينة ،

فرحب بالخليفة والذين معه من علية القوم من أهل الرأى والمشورة حتى إذا أخذ قسطًا من الراحة أمر بأن يوزع على أهل المدينة الدقيق واللحوم والأموال والذهب والفضة ، ففرحوا بلقائه ، وبما قدم لهم من عطاء ، وشكروه على اختيار عمر بن عبد العزيز أميرًا عليهم ، وخفف كل هذا من كرههم لبنى أمية من جراء ما أصابهم على يد الولاة والخلفاء السابقين .

* * *

زار الخليفة المسجد النبوى ، ليرى التجديد الذى أمر به ، والمبانى والأرض التى أدخلت فى المسجد ، وكان الحراس قد أخرجوا من كان بالمسجد إلا سعيد بن المسيب فقد أرسل إليه عمر خفية رسولًا ليقول له :

ألا يمكن أن تقوم من مكانك حتى ينهى الخليفة زيارته للمسجد ؟

فقال سعيد :

– والله لا أقوم حتى يأتى الوقت الذى أقوم فيه !

فقال رسول عمر :

فلو سلمت على أمير المؤمنين ؟

قال :

– لا أقوم إليه .

قال عمر واصفًا إشفاقه على سعيد من غضب الخليفة إن شعر بأن سعيدًا لم يحفل به :

فجعلت أعدل بالخليفة فى ناحية المسجد لئلا يراه .

لكن الخليفة مشى إلى القبلة ، وكان المكان الذى يحرص ابن المسيب على الجلوس عنده .

قال الخليفة :

من ذلك الشيخ ؟

أهو سعيد ؟

قال عمر :

– نعم ! ومن حاله كذا وكذا ، ولو علم بمكانك لقام فسلم عليك .

فقال الخليفة :

قد علمت حاله ، ونحن نأتيه .

فأتاه فقال :

كيف أنت أيها الشيخ ؟

فما تحرك سعيد ، وقال وهو جالس :

بخير والحمد لله ، فكيف أمير المؤمنين ؟ وكيف حاله ؟

اصطحب عمرُ إلى داره ابن عمه الخليفة ، والتقى مع أخته فاطمة بنت عبد الملك .

وروى أن الخليفة حكى لأخته فاطمة ما كان من أمر سعيد بن المسيب معه فى المسجد ثم قال :

عجبت له وهو شيخ كبير ، وما زال وجهه من أحسن الوجوه .

قالت فاطمة :

يا أمير المؤمنين أقرأُ للحسن البصرى قوله :

(المتهجدون العابدون القانتون من الرجال والنساء هم أحسن الناس وجوهًا ، لأنهم خلَوْا بالرحمن ، فألبسهم نورًا من نوره ، وكسا وجوههم نضرة) .

* * *

كان خبيب بن عبد الله بن الزبير يحقد حقدًا شديدًا على بنى أمية فهم الذين حاربوا أباه وقتلوه شر قتلة ، فكان يهاجمهم فى كل مجلس ، ولم يكتف بذلك بل راح ينشر أحاديث زعم أنها من أحاديث النبى ﷺ ومنها قوله :

(إذا بلغ بنو أبى العاص ثلاثين رجلًا .. اتخذوا عباد الله خولاً ، ومال الله دولاً)

وأيضًا فقد وصلت أخبار من الحجاج إلى الخليفة الوليد يخبره فيها أن خبيب يعد للثأر لأبيه عبدالله ، وللوثوب لأخذ الحكم من بنى أمية ، وكان الحجاج يكره عمر بن عبدالعزيز فقال فى رسالته : إن عمر يوادع خبيب.

فغضب الخليفة ، وأرسل إلى عمر يأمره أن يضرب خبيب مائة سوط وأن يصب على رأسه ماء باردًا ويحبسه .

فجلده عمر مائة سوط وصب على رأسه ماء باردًا فكز[1] .

نقله آل الزبير إلى دار عمر بن مصعب بن الزبير ، واجتمعوا عنده حتى مات ، فلما علم عمر بخبره أرسل رسوله ليتأكد من الوفاة ، وما كان يظن أن هذا الضرب قد يفضى إلى الموت .

جاء الرسول إلى آل الزبير وقال لهم :
إن عمر فى ضيق شديد مما صار إليه أمر خبيب ، وإنه يريد أن يطمئن عليه ، فقال عبدالله بن عروة :
ائذنوا له ليرى خبيباً .
فلما دخل قال :
كأن صاحبك فى مِرْية من موته ، اكشفوا له عنه .
فكشفوا عنه ، فلما رآه رسول عمر ، انصرف ، ولقد تأكد من وفاته .

ويحكى رسول عمر فيقول :
فانتهيت إلى دار الإمارة ، فقرعت الباب ، ودخلت ، فوجدت عمر كالمرأة الماخض قائمًا وقاعدًا ، فقال لى :
ما وراءك ؟
فقلت : مات الرجل .
فسقط إلى الأرض فزعًا ، ثم رفع رأسه ليسترجع ، وظل على ذلك بقية

(١) يقال : كز الرجل فهو مكزوز أصابه داء الكزاز وهو يبس وانقباض من البرد .

حياته ، ورغم أنه دفع لأهله دية القتل الخطأ ، إلا أن عمر كان يرى أن الله مؤاخذه بذنب خبيب ، فكان إذا بشره أحدهم بالجنة قال والدموع تملأ عينيه ، وتفيض من مآقيه ويقول :

كيف بخبيب ؟! كيف بخبيب ؟! إن نجوت من خبيب فأنا بخير.

* * *

عينه الخليفة فى سنة من إمارته على الحجاز أميرًا على الحج ، فسار إلى مكة وسط جمع عظيم من أهل المدينة ، وهناك استمع إلى كثير من شكاوى أهل الحجاز ، ووعد برفع الظلم ، والنظر فى شكاياتهم ..

فلما كان على عرفات راح يتجه إلى الله بالتضرع والدعاء ، والناس تؤمن على دعائه وكان مما قاله :

(اللهم إنك دعوت إلى حج بيتك ، ووعدت به منفعة على شهود مناسكك وقد جئتك .. اللهم اجعل منفعة ما تنفعنى به أن تؤتينى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة) .

* * *

وخلال الحج شكا إليه كثير من الحجاج من مختلف الأمصار ما يلاقونه من عمال الوليد ، فذهب عمر إلى دمشق ودخل على الوليد فقال :

يا أمير المؤمنين : إن عندى نصيحة ، فإذا خلا لك عقلك ، واستجمع لك فهمك فسلنى عنها .

قال الخليفة :
ما يمنعك منها الآن ؟
قال :
فإنك أحق أن تفهم !

وانتظر عمر أيامًا حتى رأى الوليد غير مشتغل بشيء دخل عليه ، فقال له الخليفة :

نصيحتك يا أبا حفص ؟

قال عمر :

إنه ليس بعد الشرك إثم أعظم عند اللّه من الدم ، وإن عمالك يقتلون ، ويكتبون قائلين : إن ذنب المقتول كذا وكذا ... وأنت المسئول عن هذا الدم والـمأخوذ به .

كتب الخليفة إلى جميع الأمصار أن لا يقتل أحد منهم أحدًا حتى يكتب إليّ بذنبه ، ثم يُشْهِد عليه ، ثم تأمر بأمرك على أمر قد وضح لك .

قال الخليفة :

بارك الله فيك يا أبا حفص .

* * *

كتب الخليفة إلى أمراء الأمصار كلهم فسمعوا إلا الحجاج بن يوسف الثقفى ، فقد أقلقه كتاب الوليد ، إذ ظن أن الخليفة قد اختصه وحده بهذا الأمر ! ، وسأل ، فعلم أنه كتاب لجميع الولاة .

لم يسكت الحجاج فظل يبحث ويسأل :

من الذى أشار على الخليفة بهذا ؟ وظل يبحث إلى أن عرف أن عمر ابن عبد العزيز هو صاحب هذه الفكرة ، فأقسم ليفسدن ما بين عمر والخليفة ، وراح يخطط لإفساد هذه العلاقة .

عرف أن أعرابيًا يسب بنى أمية ، وكان قد قرر قتله ، لكنه أمر بالإتيان به حيًا ، ثم سأله :

يا أعرابى ! ما تقول فى معاوية ؟

فسب الأعرابى معاوية ، وصمت الحجاج ، ثم أردف سؤاله بقوله :

وما تقول فى يزيد ؟
فسبه أيضًا ، فقال له ، وما تقول فى عبد الملك ؟
قال الأعرابى :
ظالم ، ظالم !
ثم قال :
وما تقول فى الوليد :
قال :
ظالم ، ظالم ، وأشد ظلمًا حين ولاك ، وهو يعرف غدرك وجورك .

* * *

ابتسم الحجاج ، وحدث نفسه لمجئ الفرصة سريعًا ، فلم يهن الأعرابى ولم يضربه ، أو يقتله .. لكنه بعث بالأعرابى إلى الخليفة وكتب إليه :

أنا أحوط لدينى ، وأرعى لما استرعيتنى ، وأحفظ له من أن أقتل أحدًا لم يستوجب ذلك ، وأبعث إليك ببعض من كنت أقتل على هذا الرأى فشأنك وإياه ،

دخل الأعرابى على الخليفة ومعه عمر بن عبد العزيز ورؤوس الشام وسأله الخليفة :

يا أعرابى ما تقول فىّ أنا ؟
قال الأعرابى :
ظالم جائر جبار .
قال : وما تقول فى عبد الملك ؟
قال : جبار عات .
قال وما تقول فى معاوية ؟
قال : ظالم .

فأمر الخليفة الوليد بضرب عنق الأعرابى ، والتمس العذر للحجاج .

قام الخليفة من مجلسه هذا ، وفض مجتمعه ، فلما خرج الناس دعا الخليفة عمر وسأله :

يا أبا حفص ما تقول عما سمعت من الأعرابى ، وحكمنا عليه ؟ أصبنا فيه أم أخطأنا ؟

قال عمر :

ما أصبت بقتله ، ولغير ذلك كان أصوب وأرشد .. كنت تسجنه حتى يراجع الله سبحانه وتعالى ، أو تدركه منيته .

قال الخليفة :

شتمنى .. وشتم عبد الملك .. أفتستحل ذلك ؟!

والله ما أستحله .. كنت تسجنه إن بدا لك أو تعفو عنه .

فانصرف الخليفة ساخطًا .. ودخل قلبه شيئاً من عمر .. وأصبح أكثر تقبلًا لما يقوله الحجاج فى عمر .

* * *

أمر الخليفة أن يحج الحجاج بالناس فى عامه هذا ، فغضب عمر ، وكتب إلى الخليفة أن يأمر الحجاج بألّا يدخل المدينة ، فما زالت المدينة تذكر عهده الأسود ، وما زال أهل المدينة كافرين بما سفك من دماء برئية .

كتب الخليفة إلى الحجاج :

(إن عمر بن عبد العزيز كتب إلىّ يستعفينى من مرورك عليه بالمدينة ، فلا عليك أن لا تمر بمن كرهك ، فتنح عن المدينة) .

* * *

لم يأبه عمر بما يكيد له الحجاج ، وظل على منهاجه من مساعدة

المحتاج ، وإيواء المظلوم والدفاع عنه حتى ولو أمام الخليفة ، والحجاج مستمر فى إظهار صورة عمر بأنه ضد الحكم يأوى المنشقين على الدولة ، والذين يعملون ضد الحكم .

كان الناس يفرون من ظلم الحجاج تاركين أموالهم وأهليهم بالعراق إلى أرض الحجاز ، وإلى الأمير عمر بن عبدالعزيز ، فيلقاهم الأمير بصدر رحب ، ويعطيهم من ماله ، ويجرى الأرزاق عليهم من بيت مال الحجاز ، ثم يطلب منهم أن يتفرغوا للعلم والتعليم .

علم الحجاج ما آل إليه أمر هؤلاء الفارين فكتب إلى الخليفة :

إن من عندى من المُرَّاق وأهل الشقاق قد جلوا عن العراق ولحقوا بالمدينة ومكة ، وإن ذلك وهن .

غضب الخليفة غضبًا شديدًا ، وعزم على أن يعزل عمر عن الحجاز ، وأرسل إلى الحجاج يستشيره فيمن يوليه المدينة ومكة إن عزل عمر .

فرح الحجاج فرحًا شديدًا ، وأيقن أن مخططه قد نجح ، وآن له أن ينتقم من الذين خرجوا على طاعته ، وبادر فأشار على الخليفة بخالد بن عبدالله القسرى لمكة ، وعثمان بن حيان للمدينة .

* * *

أرسل الخليفة إلى عمر يستدعيه إلى دمشق ليكون قريبًا منه ، فهناك من الأمور ما تتطلب أن يكون معه ، ولكن عمر شعر بأن هذا إعفاء له من ولاية الحجاز ، وليس أمامه إلا الطاعة لأمير المؤمنين .

خرج من المدينة ، وهو حزين ثم التفت إليها وبكى ، وقال لمولاه :

يا مزاحم نخشى أن نكون ممن نفت المدينة ، وعمر يعرف فضل المدينة ، ويعرف الأحاديث التى قيلت فى فضل المدينة وأن الذين يخرجون

منها قد يكونون من المطرودين ، وأن المدينة تطرد من تكرههم ، فيكون كالخبث ، وفى هذا تصديق لما جاء فى الحديث الصحيح الذى رواه ابن حنبل فى مسنده : أن رسول الله ﷺ قال :

« والذى نفس محمد بيده ما خرج أحد من المدينة رغبة عنها إلا أبدلها الله خيرًا منه أو مثله » .

وأيضًا ما روى عن رسول الله ﷺ قال :

« المدينة كالكير تنفى الخبيث كما ينفى الكير خبث الحديد » .

ولكن مزاحم طمأنه ، فهو لم يعص الله ، ولم يخرج عن طاعته ، ولم يترك واجبًا إلا قام به ، وأن الله يعده لأمر عظيم ، وعليه أن يخضع لتصاريف القدر ، فما عند الله خير وأبقى .

﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [1] .

* * *

كان عزاء عمر أنه لم يخرج رغبة عنها ، فلم يكن خروجه بإرادته ، بل كان مرغمًا ، فهو يحب المدينة وقلبه متعلق بها ، وإن حبه ليملأ كل جسمه وتحركاته ، ويسيطر على كل مشاعره .

وقد يكون عمر على حق فى حزنه على الخروج من المدينة ، ففيها ولد وبها أهله الصالحون ، وفيها تعلم وتأدب ، وبها مسجد الرسول ﷺ وورد فيها من الأحاديث الشريفة الكثير ، وفيها زيادة الأجر والثواب ، وقد حرمها رسول الله ﷺ بنفسه حيث يقول فيما رواه البيهقى :

« إن إبراهيم حرم مكة ، وأنا حرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ، ودعوت لها فى مُدِّها وصاعها بمثل ما دعا إبراهيم لمكة » .

---

(١) سورة النساء الآية : ١٩ .

وأخرج البيهقى أيضًا عن النبى ﷺ أنه قال :

« اللهم بارك لأمتى فى مدهم ، وبارك لهم فى صاعهم ، وبارك لهم فى مدينتهم .. اللهمّ إن إبراهيم عبدك وخليلك ، وإنى عبدك وحبيبك ورسولك ، وإن إبراهيم سألك لمكة ، وإنى أسألك مثلما سألك لمكة ومثله معه ، إن المدينة محاطة بالملائكة على كل نقب منها ملائكة يحرسونها ، لا يدخلها الطاعون ولا الدجال .. من أراد أهلها بسوء أذابه الله كما يذوب الملح فى الماء » .

* * *

هدأت نفس عمر قليلًا ، واستسلم لأمر الله ، وما يزال يرجو الخير فيما قدر له المولى جل وعلا ، ثم اتجه إلى (السويداء) وكانت أرضًا يملكها على مقربة من المدينة ، وله فيها قصر ، ينزل به ليستريح أيامًا ؛ يراجع فيها نفسه ، وما فعله بالأمس ، وكان كلما تذكر ما فعله بالأمس من الخير الكثير تطفو على سطح تفكيره مأساة خبيب التى أتت من غير ما قدر لها ، فتنغص عليه حياته ، وقد تشل بعض تفكيره .. لولا أنه يتذكر قوله تعالى :

﴿ ... وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ... ﴾ (1) .

وقد فعل والله غفور رحيم لعبد أخطأ وتاب .

قضى وقتًا ليس طويلًا بالسويداء ، ثم اتجه صوب الشام إلى دمشق ، ليرى ما يحاك للمسلمين ، وما يفعل بأمورهم وأحوالهم .

* * *

---

(1) سورة النساء الآية : ٩٢ .


عمر في دمشق

عمر في دمشق

وصل عمر بن عبد العزيز إلى الشام ، وأقام فى دمشق ، وكان وصوله سنة ٩٣هـ راضيًا بقضاء الله على تركه للمدينة التى أحبها ، وتمنى أن يعيش فيها بقية حياته .. لقد ترك فى الحجاز ذكرى عطرة ، وملأ النفوس أمنًا وطمأنينة ، فقد عرف أهل المدينة أنهم لن يضاموا وعمر موجود فى أى مكان سواء أكان هنا معهم أم فى دمشق التى تيقنوا أنه سيقيم فيها .

فى دمشق راح عمر يتابع بنفسه أحوال الغزاة الفاتحين ، ويستمع إلى الأخبار التى يأتون بها سواء أكانت هذه الأخبار من المغرب والأندلس أم من وراء العراق أم من بلاد الروم ، وكثيرًا ما كان يدلى عمر برأيه ، يبتغى من ذلك مصلحة المسلمين العامة لعله يصيب شيئًا من الأجر والثواب .

حقيقة أنه ابن عم الخليفة ، وأنه يحبه ، ولن يحقد عليه ، أو يكرهه ؛ لأنه أعفاه من ولاية المدينة ، فقد استمع الخليفة لما قاله الحجاج من أن وجود عمر بالحجاز قد يؤدى إلى وجود جبهة ضده ، وقد يكون للخليفة حق فى أن يستمع لكلام الحجاج ، فهو الرجل الذى ثبّت الملك لعبد الملك ، ووصى أولاده بالاستماع لرأيه ، والعمل بما يراه ، وأن الوليد ذكر ذلك فى مناسبات عديدة ، فهم يدينون له بفضل إخضاع البلاد لهم .

لكن ذلك لم يصم أذن عمر عن الاستماع لشكوى مظلوم أو أن يعلق عليها ، وكان أحيانًا يجمل رأيه عن الظلم والطغاة الظالمين فيقول :

الحجاج بالعراق ، والوليد بالشام ، وقرة بن شريك بمصر ، وعثمان بن حيان بالمدينة ، وخالد بن عبد الله القسرى بمكة .. اللَّهمّ قد امتلأت الدنيا ظلمًا وجورًا فأرح الناس .

اجتمع الناس لصلاة الجمعة فى مسجد دمشق الذى بناه الوليد، وحضر عمر الصلاة، والوليد يخطب على المنبر، وإذ بحركة وأصوات عالية عند باب المسجد، فالتفت عمر والناس فإذا بموسى بن نصير الذى فتح الأندلس يدخل المسجد، وقد لبس ثيابًا حسنة، ومعه ثلاثون غلامًا من أبناء ملوك الأسبان الذين أسرهم، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة، فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على المنبر عجب لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة.

جاء موسى بن نصير فسلم على الوليد وهو على المنبر، وأمر أولئك فوقفوا عن يمين المنبر وشماله، ثم استمر الوليد فى خطبته حتى أتمها، وصلى الجمعة، ثم استدعى موسى بن نصير، فقربه إليه، وأحسن جائزته، ووعده بمنصب كبير جزاء إخلاصه وطاعته.

أراد عمر بن عبد العزيز أن يتعرف على أحوال المغرب والأندلس، فأقبل على موسى بن نصير يسأله عن أحوال المسلمين والبربر الذين دخلوا الإسلام، وقد سمع الكثير عن بسالتهم وشجاعتهم وجرأتهم فى المعارك التى دخلوها ومعاونتهم فى فتح البلاد حتى وصلوا إلى حدود بلاد الفرنجة، فأعطاه موسى صورة واضحة عن طبيعة تلك البلاد وأحوال الناس الذين يسكنونها، وقد سر عمر كثيرًا بما سمع، وإن لم يكن راضيًا عن الطريقة التى لاقى بها ابن نصير الخليفة الوليد، وما كان يحمل من الهدايا والغلمان والجواهر.

* * *

كان فى نفس عمر شىء من تصرفات الخليفة الوليد.. لكنه لم يبلغ درجة الكره والحقد الدفين والتآمر عليه، فقد كان أحيانًا يذهب إلى الخليفة لينصحه إذا وجد أمرًا يستدعى ذلك، فكان يريد الصالح العام الذى ينبغى أن يسير عليه الخليفة فى حكم الرعية.

لكن حدث ما لم يكن فى الحسبان ، فقد أشار الحجاج على الخليفة أن يخلع أخاه سليمان من ولاية العهد ، وأن يولى مكانه ابنه عبد العزيز بن الوليد ، وبدأ الوليد يخطط لذلك ، وكان أول ما فعل أن استدعى عمر إليه ، وحدثه حديثًا مستفاضًا فى سبب دعوته له من الحجاز إلى دمشق .. كى يأخذ برأيه فى الأمور الهامة ، ويشاوره فيما يستجد من أحداث ويطلعه على أخبار الجهاد وفتح البلاد والغزوات ، وعمر صامت لكنه يشعر أن وراء كل هذا شىء ، وانتظر عمر علَّ الخليفة يفصح عنه ، وفجأة انتقل إليه من غير مقدمات فقد قال لعمر :

ما رأيك يا ابن العم فى ولدنا عبد العزيز :

قال عمر :

زين الشباب وابن الخليفة وله مكانة كبيرة فى نفوسنا جميعًا .

قال الوليد :

ألست ترى معى أنه يصلح لولاية العهد من بعدى ؟ وهذا ليس رأيى وحدى ، فلقد أشار علىّ به ولاة الأمصار ، وإننى منتظر رأيك ثم موافقتك .

قال عمر :

يا أمير المؤمنين ! إن عمنا عبد الملك عقد لك ولأخيك سليمان عقدة واحدة ، وقد بايعنا على ذلك ، فكيف نخلعه ونتركك ؟

* * *

سكت الوليد لكنه أسرها فى نفسه ، ولم يمنعه رفض عمر لخلع أخيه سليمان من ولاية العهد والبيعة لابنه عبد العزيز ، وكان أول من جاهر بذلك والى العراق الحجاج بن يوسف الثقفى ، وتبعه بعض الولاة .

لم يرض سليمان بخلع نفسه ، وكان يقود جيشًا لفتح بعض بلاد الروم ، وعزم الوليد على أن يخلع أخاه سليمان فيذهب إليه وهو فى غزوته ،

وأعد جيشًا ليخرج به من دمشق إلا أن القدر لحقه فهلك قبل أن يخرج من دمشق ، ومن قبله جاء للوليد خبر هَلْك الحجاج وهو فى ولايته بالعراق .

صلى على الخليفة الوليد عمرُ بن عبد العزيز ، وأعلن البيعة لأخيه سليمان تنفيذًا للعهد الذى كتبه والدهما الخليفة عبد الملك .

* * *

ذهب عمر بن عبد العزيز وزوجه فاطمة بنت عبد الملك إلى سليمان ليعزياه فى الوليد ويهنئاه بالخلافة وبما أنعم الله عليه ، وحمل سليمان لعمر جميله لوقوفه بجانبه ، فعَزَلَ الولاة الظالمين وفى مقدمتهم عثمان بن حيان عن المدينة ، ولم يول عمر بن عبد العزيز مكانه ، فقد رأى أن يكون بجانبه ليستعين به فى أمور الحكم .

أشار عمر بعزل من بقى من عمال الخليفة السابق الذين عرفوا بالظلم ومخالفة أحكام الإسلام ، فعزلهم سليمان جميعًا ، وولى مكانهم حكامًا صالحين .. اختارهم له عمر ، ونصحه بإطلاق السجناء ، فأطلق مَنْ فى السجون عشرات الألوف حتى المذنبين عفا عنهم ، وأطلق سراحهم .

استبشر الناس بعهد سليمان فقالوا :

سليمان مفتاح الخير .

* * *

لم يلتزم الخليفة سليمان بكل ما يبديه عمر ويقوله :

كان عمر بن عبد العزيز ينهى عن قتل الحروريين وهم طائفة من الخوارج ويقول للخليفة :

ضمنهم الحبس حتى يحدثوا توبة ، فأتى سليمان بحرورى ، فقال له سليمان :

إيه ؟

فقال الحرورى :

إيه ؟ نزع الله لحييك يا فاسق ابن فاسق !

قال سليمان :

عليّ بعمر بن عبد العزيز .

فلما أتاه عمر ، عاود سليمان الحرورى ، فقال له :

ما تقول ؟

قال :

وماذا أقول ؟ يا فاسق ابن فاسق !

قال سليمان لعمر :

يا أبا حفص ! ماذا ترى عليه ؟

قال :

أرى عليه أن تشتمه كما شتمك .

قال سليمان :

ليس إلّا ؟

قال عمر :

ليس إلّا .

فلم يرجع سليمان إلى قوله ، فأمر به ، فضربت عنقه ، وقام سليمان وخرج وتبعه خالد بن الريان صاحب حرس الخليفة سليمان فقال :

يا أبا حفص .. تقول لأمير المؤمنين ما أرى عليه إلا أن تشتمه كما شتمك ؟ والله لقد كنت متوقعًا أن يأمرنى بضرب عنقك .

قال عمر :

لو أمرك لفعلت ؟

قال :

إنى لو أمرنى لفعلت .

وهكذا نرى عمر بن عبد العزيز يضع نفسه فى مآزق لا يبتغى منها مالًا ولا جاهًا غير أن يقول كلمة حق، ولو أدى ذلك إلى قطع الرقبة .

* * *

ودخل عمر على الخليفة سليمان ابن عمه، وعنده ابنه أيوب وهو يومئذ ولى عهده، فقد عقد له الخلافة من بعده، فجاء إنسان يطلب ميراثًا من الخليفة .

فقال سليمان :

ما أخال أن النساء يرثن فى العقار شيئًا .

فقال عمر :

سبحان الله ! وأين كتاب الله ؟

فقال الخليفة :

يا غلام ! اذهب فأتنى بسجل عبد الملك بن مروان الذى كتب فيه ذلك .

فقال عمر :

لكأنك أرسلت إلى المصحف .

قال أيوب :

والله ليوشكن الرجل يتكلم بمثل هذا عند أمير المومنين، ثم لا يشعر حتى يفارقه رأسه .

قال عمر :

إذا أفضى الأمر إليك وإلى مثلك، فما يدخل على أولئك أشد مما خشيت أن يصيبهم من هذا .

فقال الخليفة لابنه وولى عهده أيوب :

مه ! ألأبى حفص تقول هذا ؟

فقال عمر :

يا أمير المؤمنين ! والله لئن جهل علينا ما حلمنا عليه .

وسكت الخليفة ، وكأنه أمن على ما قاله عمر ردّاً على ما صدر من ابنه أيوب ، وهذا يرينا منزلة عمر فى قلب الخليفة .

* * *

واقتتل غلمان للخليفة سليمان بن عبد الملك ، وغلمان عمر بن عبد العزيز فضرب غلمان عمر غلمان سليمان ، فدخل عليه عمر فقال له سليمان :

ما هذا ؟ ضرب غلمانك غلمانى !

فقال عمر :

ما علمت هذا قبل مقالتك الآن .

فقال له الخليفة :

كذبت !

فقال له عمر :

تقول لى كذبت ؟ وما كذبت منذ شدد علىّ إزارى ، وإن فى الأرض عن مجلسك هذا السعة .

ثم خرج من عنده ، وتجهز يريد الخروج إلى مصر ، فأرسل إليه الخليفة سليمان بن عبد الملك : أن ارجع فادخل علىّ ، وقال للرسول :

إذا جاءنى فلا يعاتبنى ، فإن فى المعاتبة حقدًا .

فجاءه عمر ، فقال له سليمان :

ما أهمنى أمر قط إلّا خطرت فيه على بالى .

* * *

ثم إن ولى عهد الخليفة سليمان ابنه أيوب وكان الخليفة قد عهد إليه من بعده[1] لكن المرض لم يمهله ، فقد قضى عليه ، وهو لا يزال شابًا فتيًا ،

---

(١) قصة موت أيوب بن سليمان فى التعازى للمبرد ص ١٦٤ ، ١٦٥ تحقيق إبراهيم محمد الجمل .

وحضر أبوه الوفاة ودخل عليه ، وهو يجود بنفسه ومعه عمر بن عبد العزيز وسعيد بن عقبة ، ورجاء بن حيوة ، فجعل سليمان ينظر فى وجهه ، وهو فى نزعه الأخير ، فخنقته العبرة فردّها ، ثم نظر إلى من كان معه فقال :

إنه ما يملك العبد أن يسبق إلى قلبه الوجد عند المصيبة ، والناس تختلف فى ذلك ، فمنهم من يغلب صبره جزعه ، فذلك الجَلْدُ الحازم المحتسب ، ومنهم من يغلب جزعه صبره ، فذلك المغلوب الضعيف ، وإنى أجد فى قلبى لوعة إن لم أبرّدها بعبرة خشيت أن تنصدع كبدى كمدًا وأسفًا .

فقال له عمر بن عبد العزيز :

يا أمير المؤمنين ! الصبر أولى بك فلا تحبطنّ أجرك .

فنظر سليمان إلى سعيد بن عقبة وإلى رجاء بن حَيْوة نظرة مستغيث فقال له رجاء :

يا أمير المؤمنين : فرّج عن نفسك ، وافعل ، فإنى لا أرى بأسًا ما لم تأت الأمر المفرط ، فقد بلغنى أن رسول الله ﷺ لما هلك ابنه إبراهيم اشتد وجده عليه فدمعت عيناه فقال :

« تدمع العين ، ويحزن القلب ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا بك لمحزونون يا إبراهيم » .

وقال رجاء :

وأرسل عينيه ، فبكى حتى ظننا أن نياط قلبه قد انصدع .

فقال عمر بن عبد العزيز :

يا رجاء ! هذا ما صنعت بأمير المؤمنين .

فقال رجاء :

دعه يا أبا حفص يقضى من بكائه وطرًا ، فإنه لو لم يخرج من صدره ما ترى لخفت أن يأتى عليه ، ثم رفأت عبرته ، فدعا بماء فغسل وجهه ، فأقبل علينا ، وقد قضى الفتى ، فأمر بجهازه ، وخرج يمشى أمام جنازته فلما دفن وحثا عليه التراب وقف قليلًا ينظر إلى قبره ثم قال :

وقفت على قبر مقيم بقفرة   متاع قليل من حبيب مفارق

ثم قال :

السلام عليك يا أيوب :

كنت لنا أنسًا فأوحشتنا   فالعيش من بعدك مر المذاق

ثم قال :

أدن يا غلام دابتى فركب ، ثم عطف برأس دابته إلى القبر .

ثم قال :

فإن صبرت فلم ألفظك من شبع   وإن جزعت فَعِلْقٌ مَنْفِسٌ ذَهَبا

فقال عمر :

يا أمير المؤمنين : بل الصبر ؛ فإنه أقرب إلى الله وسيلة ، وليس الجزع يحيى من مات ، وبالله العصمة والتوفيق .

* * *

كان الخليفة سليمان ومستشاره رجاء بن حيوة ، ومعهما عمر بن عبد العزيز يسهرون معًا كى يتناقشوا فى أمور الحكم ، وكان عمر موفقًا فى كل ما يبديه من الرأى ؛ لأنه يقول الحق عاريًا من كل غرض .. يقصد به وجه الله ، وكان رجاء بن حيوة يلمس ذلك بنفسه ، فكبر عمر فى عين رجاء ، وأعجب بورعه وتقواه ، وازداد حبه له ، وتمنى فى قرارة نفسه ، لو يؤول إليه أمر المسلمين ليرجع بالمسلمين إلى عهدهم الأول عهد الخلفاء الراشدين .

كان عمر لا يفارق سليمان ، فتقع عينه على ما يجرى فى محيط الحكم والبلاد ، وكان رأيه استشارى ، وكان لا يعجبه بعض تصرفات الخليفة الشخصية فهو يحب الثياب الفاخرة ، ويفضل الحرائر والموشاة منها ، وما صنع فى اليمن والكوفة ومصر ، وقد أمر ألا يدخل عليه رجل من أهل بيته إلا فى الوشى ، وكذلك عماله وأصحابه ، حتى الطباخ فإنه يدخل عليه فى صدره وشى وعلى رأسه قلنسوة مزينة بالنقوش .

ولم يكن عمر راضيًا عما يميل إليه الخليفة ، ويظهر ذلك فى إجابته عندما سأله الخليفة عن رأيه فيما هو فيه من هيئة وملابس .

فقال عمر :

سرور لولا أنه غرور ، وحياة لولا أنها موت ، ونعيم لولا أنه عذاب أليم .

* * *

كان الخليفة معجبًا بنفسه وبمنظره ، نظر فى المرآة فعجب بحسن وجهه ، وكان فى سن الأربعين ، وفى يوم جمعة تعطر واستعد ليخطب خطبة الجمعة ، وكانت العادة والتقاليد أن يخطب الخليفة ، وقبل أن يخرج للخطبة والصلاة ، دعا بعمائم ، فجعل يجرب واحدة بعد الأخرى حتى أعجبته واحدة فأخذ يخطر أمام المرآة ويقول :

أنا الملك الشاب .. السيد المهاب الكريم الوهاب !

وكانت أمامه إحدى جواريه المفضلات فسألها :

كيف ترين أمير المؤمنين ؟

قالت الجارية :

أراه مُنَى النفس ، وقرة العين ، لولا ما قال الشاعر :

سألها :

وما قال الشاعر ؟

قالت :

قال :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان

أنت من لا يريبنا منك شىء ... علم الله غير أنك فان

ليس فيما بدا لنا منك عيب ... يا سليمان غير أنك فان

فغشيته الكآبة .. ثم دمعت عيناه ، وخرج إلى الناس يخطبهم فبكى على المنبر .

أدخل عمر بن عبد العزيز أحد أصحابه أبا حازم الأعرج يوما على سليمان لينصحه . فقال له سليمان :

يا أبا حازم ، ما لنا نكره الموت ؟

قال :

لأنكم عمرتم دنياكم وخربتم آخرتكم ، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب .

قال سليمان :

فأخبرنى كيف القدوم على الله .

قال :

أما المحسن فكالغائب يأتى أهله مسرورًا ، وأما المسىء فكالعبد يأتى مولاه محزونًا .

قال :

فأى الأعمال أفضل ؟

قال :

أداء الفرائض مع اجتناب المحارم .

قال :

فأى القول أعدل ؟

قال :

كلمة حق عند من تخاف وترجو .

قال :

فأى الناس أعقل ؟

قال :

من عمل بطاعة الله .

قال :

فأى الناس أجهل ؟

قال :

من باع آخرته بدنيا غيره .

فقال سليمان :

عظنى وأوجز .

قال :

يا أمير المؤمنين ! عظم ربك ، وإياك أن يراك بحيث نهاك عنه ، ويفقدك من حيث أمرك .

فبكى سليمان بكاء شديدًا ، فقال أحد الجلساء :

أسرفت — ويحك — على أمير المؤمنين !

قال عمر :

اسكت فإن الله عز وجل أخذ الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه .

* * *

عزم أمير المؤمنين سليمان على الحج ، وصحب معه عمر بن عبد العزيز ، وأخذ معه أيضًا القائد العظيم موسى بن نصير ، وكان عاتبًا عليه من جراء ما فعله مع أخيه الخليفة الوليد ، فقد خصه بأموال كثيرة ، فطالبه الخليفة سليمان بمثلها وضيق عليه الخناق ، ولم يتخلص من الخليفة إلا فى المدينة ، حينما ذهب سليمان للزيارة مات موسى بن نصير ودفن هناك .

وفى أثناء السير فى الأراضى المقدسة أبرقت السماء ، وارتجت الآفاق بالرعد ،وانهمر مطر غزير ، فأصاب الناس شىء من الذعر عظيم ، فضحك عمر ، وسليمان يعالج فزعه ، فقال سليمان مستنكرًا .

أتضحك يا عمر ؟

قال عمر :

نعم هذه آثار رحمته ، ونحن فى هذه الحال من الفزع والهلع ، فكيف بآثار غضبه .

وفى طريقه إلى مكة رأى سليمان كثرة الناس الذين أتوا لمناسك الحج ، فسأل عمر :

ما تقول فى هؤلاء يا أبا حفص ؟

قال عمر :

يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم ، وأنت مسئول عنهم أمام الله غدًا ، وهم خصماؤك يوم القيامة .

كانت نفس سليمان نقية صافية .. قابلة للتوبة ، والرجوع إلى الله ، وتقبل ما يلقيه عليه ابن عمه عمر ، فعاهد الله أن يصلح من أمره ، وأن يعدل بين الرعية ، وندم على ما كان منه ، فرفع يديه إلى السماء يطلب من الله العفو والمغفرة .

وكان بمكة حر شديد ، وسليمان ضخم الجثة ، فتأذى بالحر ، وشكا إلى عمر ، فقال له :

لو أتينا الطائف ؟

فوافق عمر على طلبه ، والطائف فوق جبال عالية ، وجوها رطب منعش ، فأتاها الخليفة ومن معه ، فما أن صعد الخليفة إليها وشعر ببرد الطائف حتى استلقى على الرمل مستمتعًا بالبرد وألصق به بطنه .

ولما أحس بالجوع الشديد سأل عن الطعام ، فدعاه رجل من أهل الطائف إلى داره ، فقبل الدعوة ، فلما وصل إلى دار الرجل سأل أعندكم شىء يقدم قبل نضوج الطعام ، فقدموا إليه من رمان الطائف الكثير فأكل ، حتى إذا قدموا إليه جديًا مشويًا التهمه وحده وأتوا إليه بدجاج فأكل ما طاب له حتى عزم على الرجوع إلى مكة قال لعمر ابن عمه ورفيقه فى تنقلاته ؟

أرانا قد أضررنا بالقوم .

فوافقه عمر ، ثم قال لمضيفه :

اتبعنى إلى مكة .

فلم يتبعه الرجل ، فقيل له :

لو أتيته !

قال :

أقول ماذا ؟ أعطنى ثمن ما أطعمتك !

ثم مر فى أثناء رجوعه على بستان كبير لآل عمرو بن العاص فاستضافوه ، وقدموا له طعامًا كثيرًا ، وكان من الطعام جدى أكل وحده ثلثيه ، وأراد أن يقدم الباقى إلى عمر فقال له عمر :

إنى صائم .

فأتى على باقى الجدى ، وما يتبعه من دجاج حتى أتى على ما قدم إليه ، وما علم الخليفة أن هذا النهم الشديد سيقضى عليه .

* * *

ثم أتى المدينة بعد أن انتهى من حجه ، ومن فترة قضاها فى مكة ، فأراد أى يسرى عن أهل المدينة ويكرمهم ، فوزع الأموال على الناس وخص الأغنياء بالكثير ، وبعد أن أعطى سأل عمر :

كيف رأيت ما فعلنا يا عمر ؟

فأجابه عمر بصراحته المعهودة :

يا أمير المؤمنين ، قد - والله - رأيتك زدت أهل الغنى غنى وتركت أهل الفقر بفقرهم !

فراح يسأل عمر وقد حسب أنه أحسن صنعًا ، فنبهه عمر إلى ما يجب فعله فى مثل هذه الحالات ، فوعد بإصلاح الأمر ، وبالعطف الزائد على أهل المدينة .

قضى أيامًا ، ثم قفل راجعًا إلى عاصمة الخلافة .. إلى دمشق .

* * *


وجاءته الخلافة

وجاءته الخلافة

أتتـه الخلافـة منـقـادة إلـيـه تجـرر أذيـالـهـا
فلـم تـك تـصلـح إلَّا لـه ولـم يـك يـصلـح إلَّا لـهـا

وكذلك تسير المقادير ، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبده خيراً مهّد له طريقه ، وجعل كُلَّ شيء يسير في ركابه .. تنفيذًا لخطة رسمتها له المقادير حتى يقضىَ الله أمرًا كان مفعولاً .

فعمر بن عبد العزيز ترتقى به المعالى إلى السماء ، والقدر يعده لرسالة عظمى ، ومعجزة ربانية تدل على قدرة إلهية ؛ فمن كان يظن أن مسار خلفاء بنى أمية المبنى على الضلال البعيد وعن تعاليم الإسلام السامية ، والتى عاد بها الخلفاءُ إلى الجاهلية الأولى سيُقْضى عليها فى يوم وليلة على يد ابن عبد العزيز .

لقد كان الناس يقولون : أما لهذا الظلام من نهاية .. أما لهذا الفساد من آخر .. أما لهذا الليل من صباح .. لقد دعوا الله سبحانه وتعالى كثيرًا ، واستجاب المولى سبحانه ، فلن يمر وقت طويل حتى يُنادَى على عمر بن عبد العزيز أن اذنُ ، فقد حان وقت توليك أمر المسلمين ، وأن تهيأ لترقى إلى المكان الذى أعده الله سبحانه وتعالى لك ، لتكون عظة وعبرة ودليلًا على قدرة الله على التبديل والتغيير ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا أَمْثَٰلَكُم ﴾[1] .

وفى زماننا هذا قضى الله على الشيوعية الجاحدة بالله سبحانه وتعالى وبوجوده فى لمح البصر من غير أن يراق دم وسبحان المتصرف فى عالمه ، وهذا دليل على قدرته جل وعلا .

---

(١) سورة محمد الآية : ٣٨ .

كان الخليفة سليمان بن عبد الملك نهماً فى طعامه وشرابه فلا يفرغ من أكله حتى يهجم على غيره مما لذ وطاب له وقالوا عنه :

كان يضع سلال الفاكهة حول سرير نومه ، فإذا تقلب فى سريره ، يضع يده لِيَلْتَهِم ما قابلته يده .. زيادة على ما يلتهمه فى يقظته حتى أضرّ به نهمه ضررًا بليغًا ، وأصابته تخمة شديدة .. أفتك من كل تخمة أصابته من قبل ، وأحس بدنو أجله ، وكان قد عهد إلى ابنه أيوب بالخلافة ولكن القدر لم يمهل أيوب فقد مرض مرضًا شديداً ثم فارق الحياة .

دعا الخليفة سليمان وزيره وأمين سره رجاء بن حَيْوة الكِنْدى .. قالوا عن رجاء هذا :

كان من أعبد أهل زمانه .. حكيمًا ذا أناة ووقار .

دعاه الخليفة ليأخذ برأيه فيمن يعهد إليه بولاية العهد ، فلم يجبه رجاء فى أول الأمر لكن المرض اشتد على الخليفة فلما أعاد عليه السؤال . قال له رجاء :

إنه مما يُحفَظ به الخليفة فى قبره أن يستخلف الرجل الصالح ، ولم يشر عليه رجاء بأحد ، ثم دعا الخليفة رجاء بعد مضى وقتٍ فسأله :

ما ترى فى ابنى داود بن سليمان ؟

قال رجاء :

يا أمير المؤمنين هو غائب بقسطنطينية — وكان يقود جيشًا لفتحها — وأنت لا تدرى أحى هو أم ميت ؟!

قال الخليفة :

يا رجاء : فمن ترى يصلح للخلافة ؟

قال رجاء :

رأيك يا أمير المؤمنين !

قال الخليفة :

كيف ترى فى عمر بن عبد العزيز ؟

قال رجاء :

أعلمه — والله — فاضلًا !

قال سليمان :

والله لئن وليته، ولم أولِّ أحدًا من بنى عبد الملك لتكونن فتنة، ولا يتركونه أبدًا يلى عليهم إلا أن يجعل أحدهم بعده، فأخِى يزيد بن عبد الملك سأجعله بعده، فإن ذلك مما يسكّنهم، ويرضون به .

* * *

لكنه فى اليوم التالى قال سليمان لرجاء بن حَيْوة :

اعرض علىّ ولدى فى ملابس الملك :

كان عمر بن عبد العزيز حاضرًا حينما طلب الخليفة من رجاء أن يحضر أبناءه .. جمعهم ابن حَيْوة، وكانوا صغاراً فى سن متقاربة، وكانوا أربعة عشر ولدًا من زوجات مختلفات، فلما ألبسهم الأردية والطيلسانات أثقلهم حمل ذلك، فتعثروا، ووقع منهم من وقع باكيًا، فقال سليمان متحسرًا ومتمثلًا بقول الشاعر الحارث بن عباد البكرى :

إنّ بَنِىّ صِبْيَةٌ صِغارُ   أفلح من كان لَهُ كِبارُ

إن بَنِىّ غِلْمةٌ صَيْفيونْ   أفلح من كان له رِبْعيُّون[1]

فقال له عمر بن عبد العزيز :

يا أمير المؤمنين : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾[2]

ولكن سليمان ما يزال فى غفلته، وكأنه ما يزال يتصور أن أحد أولاده يمكن أن يكون خليفة فقال :

يا رجاء : أعرض علىّ بَنِىّ فى السيوف الذهبية !

---

(١) البيتان من الرجز، للشاعر المذكور، والولد الصيفى : هو الذى يولد للرجل بعد السن، والربعى : هو الذى يولد له فى عنفوان الشباب . راجع إن شئت كتاب التعازى للإمام المبرد ص ٢٣٠ تحقيق إبراهيم محمد الجمل . مكتبة نهضة مصر .

(٢) سورة الأعلى الآية : ١٤، ١٥ .

فعرض عليه أولاده، وهم يحملون السيوف، فإذا هم صغار لا يستطيعون حملها، والمشى بها، فتحسر وتألم وكرر ما قاله سابقًا :

إنّ بَنيّ صِبْيَةٌ صِغارُ　أفلح من كان لَهُ كِبارُ

إن بَنيّ غِلمةٌ صَيْفيونْ　أفلح من كان له رِبْعيُّون

لكنه فى هذه المرة مر بخاطره ما قرأه عليه ابن عمه عمر بن عبد العزيز، فراح يكرر قراءة الآيتين الكريمتين :

﴿ **قد أفلح من تزكى* وذكرَ اسْم ربه فصلى** ﴾

ثم أطلق لفكره العنان، وحدث نفسه طويلًا، ثم نادى ابن حَيْوة فقال له :

يا رجاء : لأعقدن عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب!

نام الخليفة لحظات متقطعة، ثم استيقظ فى الصباح، وقد اشتد عليه الوجع، فدخل عليه أهله حَشَمُهُ وَلُحْمَته يكون، وفيهم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ففتح عينيه، فاطلع فى ووجوهم، وأدار عينيه فيهم، ثم أغمض عينيه عنهم .

خرج القوم من عند الخليفة، وبقى رجاء بن حَيْوة، وتخلف عن القوم قليلًا عمر بن عبد العزيز، وفى نيته أن ينفرد برجاء ليقول له كلامًا، فأشار إلى رجاء أن ائت إلىّ، فلحق به رجاء، فقال له :

إنى أرى أمير المؤمنين فى الموت، ولا أحسبه إلّا سيعهد، وأنا أناشدك الله إن ذكرنى بشىء من ذلك إلّا صددته عنى، وإن لم يذكرنى فلا تذكرنى له فى شىء من ذلك .

فقال رجاء وقد مَوّه على عمر :

لقد ذهب ظنك مذهبًا ما كنت أحسب أنك ستذهبه ... أتظن بنى عبد الملك يدخلونك فى شىء من أمورهم؟!

* * *

عاد رجاء إلى سليمان، فأمر بأدوات الكتابة، وجلس فى فراشه، ورجاء يسنده حتى كتب بيده عهد مَنْ سيخلفه بعد وفاته :

بسم الله الرحمن الرحيم

« هذا كتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز إنى قد وليته الخلافة من بعدى ، ومن بعده يزيد بن عبد الملك ، فاسمعوا له ، وأطيعوا ، ولا تختلفوا فيطمع فيكم عدوكم » .

ثم ختم سليمان بخاتمه .

* * *

طلب سليمان من رجاء بن حيوة أن يذهب بعهده هذا إلى أهل بيته ، وأن يجمعهم ، ثم يخبرهم أن هذا كتاب أمير المؤمنين فيه اسم مَنْ عهد إليه بالخلافة وأمرهم أن يبايعوا من اختاره .

جمعهم رجاء ، وألقى على أسماعهم ما أشار به الخليفة ولم يخبرهم باسم من اختاره ، فقالوا : سمعنا وأطعنا .

ثم قالوا :

ندخل فنسلم على أمير المؤمنين .

قال : نعـم !

فلما دخلوا على أمير المؤمنين سليمان قال لهم :

هذا الكتاب هو عهدى ، فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سميت فى هذا الكتاب .

قال رجاء :

فبايعوا رجلًا رجلًا .

فلما تفرقوا جاء عمر بن عبد العزيز إلى رجاء بن حَيْوة ، فقال له :

إن سليمان كانت له حرمة ومودة ، وكان بى برًا لطيفًا ، فأنا أخشى أن يكون قد أسند إلىّ من هذا الأمر شيئًا ، فأنشدك الله — سبحانه وتعالى — وحرمتى ومودتى إلّا أعلمتنى إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن يأتى حالٌ لا أقدر فيها علىَ ما أقدر الساعة .

قال رجاء :

لا ، — والله — ما أنا بمخبرك حرفًا واحدًا .

ثم التقى هشام بن عبد الملك أخو الخليفة مع رجاء بن حيْوة فقال هشام :

يا رجاء إن لى بك حرمة ومودة قديمة ، فأعلمنى : أهذا الأمر إلىّ أنا ؟ فإن كان إلىّ أنا علمت ، وإن كان لغيرى تكلمت ، فليس مثلى ينحّى عنه هذا الأمر ، فأعلمنى ، ولن أذكر اسمك أبدًا .

قال رجاء :

فأبيت وقلت :

لا — والله — لا أخبرك حرفًا واحدًا مما أسر إلىّ أمير المؤمنين .

فانصرف هشام وهو يائس ، فكان يضرب بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول :

فإلى من نحيت عنى ؟ أتخرج من بنى عبد الملك ؟ فوالله إنّى لعين بنى أمية[1] .

* * *

دخل رجاء على الخليفة سليمان ، وهو فى النزع الأخير ، وروحه كادت تفارق كل جسده حتى قُضى أمر الله فأغمض عينيه ، وغطاه بقطيفة خضراء ، ووقف أمام جثمانه يدعو له بالمغفرة والرحمة ، ثم أغلق عليه الباب ، وأجلس خارج الباب المغلق من يثق به ، وأوصاه أن لا يسمح لأحد بالدخول على الخليفة مهما كانت صفته ، ثم راح يبحث عن صاحب الشرطة ، فأرسل إليه ، وطلب منه أن يجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا فى المسجد ، ثم قال :

بايعوا على ما أمر به أمير المؤمنين الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ومن سمى فى هذا الكتاب المختوم .

---

(١) أى إنى لمن أعيان بنى أمية .

فبايعوا رجلًا رجلًا ، فلما بايعوا .. ورأى رجاء أن الأمر قد تم ، وأن البيعة قد تمت ، قال رجاء :

قوموا إلى صاحبكم ، فقد مات :

قال القوم :

﴿ ... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾[1] .

* * *

قرأ رجاء الكتاب الذى عهد به سليمان ، ولما وصل إلى ذكر مَنْ عهد إليه سليمان ، اشرأبت الأعناق ، وانصتت الآذان ، وعلى رأسهم هشام بن عبد الملك ، فلما ذكر اسم عمر بن عبد العزيز جثا هشام على ركبتيه وقال :

هـاه !!

فسل رجل من أهل الشام سيفهُ وقال :

تقول لأمر قد قضاه أمير المؤمنين هاه !

فنادى هشام :

قال رجاء :

أضرِب — والله — عنقك .

فلما قرأ : ثم يزيد بن عبد الملك من بعد عمر بن عبد العزيز .. قال هشام : سمعنا وأطعنا ، وقام يجرّ رجليه فبايع .

وقال النّاس سمعنا وأطعنا ، وقاموا فبايعوا عمر بن عبد العزيز .

أخذ رجاء بن حيوة بيد الخليفة عمر بن عبد العزيز فأجلسه على المنبر ، وكان اليوم هو العاشر من شهر صفر عام تسع وتسعين من الهجرة ، ليخطب الناس وكان مما قاله :

أما بعد فقد ابتليت بهذا الأمر على غير رأى كان منى فيه ، وعلى غير مشورة من المسلمين ، وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى ، فاختاروا لأنفسكم .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٦ .

وراح عمر يهبط من على المنبر .

وذهل الحاضرون ، فما ظنوا أن واحدًا من بنى أمية يرغب عن الملك ويزهد فى أبهته .. وفى صوت مرتفع وعال صاحوا صيحة واحدة :

قد اخترناك يا أمير المؤمنين ، ورضيناك .

* * *

كان هشام بن عبد الملك فى ذهول مما أدت إليه المفاجأة ، فلم يكن يتصور أن الأمر سيخرج من أولاد عبد الملك إلى غيرهم ، ولو كان من أولاد عمه عبد العزيز الذى كان مرشحًا لولاية العهد من قبل .. أما وقد صار الأمر على غير هواه ، فليرض بالواقع ، وصعد المنبر ليبايع وهو يقول :

﴿ ... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[1] حين صار هذا الأمر إليك دون ولد عبد الملك .

فقال عمر :

نعم ﴿ ... إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾[2] الذى صرت أنا وأنت نتنازع هذا الأمر .

ثم هدأت أصوات المبايعة ، ورأى أن الناس متطلعون لسماع كلمة منه يبين فيها نهجه الذى سيسير عليه ، فقد اختاروه جميعًا ، ورضوا به .

عاد فصعد المنبر .. وحمد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ وكان مما قاله :

أيها الناس إنى لست بمبتدع إنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، وإن من حولكم من الأمصار إن أطاعوا كما أطعتم ، فأنا منكم وإليكم ، وإن أبوا فلست لكم بوال .

وتمت البيعة لعمر بن عبد العزيز .

---

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٦ .

(٢) الآية السابقة .

نزل عمر من أعلى المنبر ، فقال له الناس .
السلام على أمير المؤمنين .

هزه هذا النداء ، فكيف وصل أمره إلى أن ينادى أمير المؤمنين ولم تتحمله قدماه ، فجلس على أرض المسجد ، وأدخل رأسه بين ركبتيه ، وبكى أحر البكاء ، فقال بعض بنى عبد الملك .
يبكى فرحًا بالخلافة .

ثم رفع رأسه ، ومسح عينيه ، وقال :
اللهم ارزقنى عقلًا ينفعنى ، واجعل ما أصير إليه أهم مما يزول عنى .

* * *

أخذ القوم فى تجهيز الميت ، وإعداده الشرعى للدفن : من غسل ، وتكفين ، فلم يفرغوا منه حتى وقت المغرب ، فصلى الخليفة عمر بالناس صلاة المغرب ، ثم صلى على سليمان ، ثم بدءوا فى إدخاله حفرته ، ونزل عمر فى الحفرة ليتلقى جسد سليمان ، ثم خرج بعد أن أضجعها ، ثم سووا التراب عليها .

وما كاد ينتهى عمر من دفن سليمان حتى دعا بدواة وقرطاس فكتب ثلاثة كتب لم يسعه فيما بينه وبين الله أن يؤخرها فأمضاها من فوره ، فأخذ الكتبة فى كتابة ما أملاه عليهم .

قال البعض :
ما هذه العجلة ؟ أما كان يصبر إلى أن يرجع إلى منزله ؟
وقال نفر من بنى أمية .
هذا حب السلطان ، هذا الذى يقول إنه يكره ما دخل فيه من أمر هذا الملك !

ولم يكن عمر بالذى يتعجل الأمر لغرض دنيوى ، ولا محبة إلى ما صار

إليه ، لكنه حاسب نفسه أمام أحكم الحاكمين ، ورأى أن تأخير ذلك سوف يحاسبه الله عليه .

وبعد هذا سمع رجة للأرض ، فقال عمر :

ما هذه ؟

فقيل :

مراكب الخلافة يركبها الخليفة أول ما يلى ، وهى مكونة من البراذين[1] والخيل والبغال المطهمة[2] ، ولكل دابة سائس .

فقال رضى الله عنه :

دابتى أوفق لى[3] !

فركب بغلته ، والتفت إلى غلامه وقال :

يا مزاحم ! ضم هذه إلى بيت مال المسلمين .

دهش القوم الذين حوله ، وقالوا :

إنه أرسل الدواب لتباع ، ويضم ثمنها إلى بيت المال ، وما فعل ذلك خليفة من قبل ، إنه أول من فعل هذا من خلفاء بنى أمية ، ولعلنا نرى الخير العميم على يديه .

* * *

انصرف الخليفة مع الناس من مرج دابق وهو المكان الذى تمت فيه مراسم دفن سليمان إلى عاصمة الخلافة دمشق ، ثم مالوا به نحو دار الخلافة ، وقد أقاموا له السرادقات وصنعت له حجرات ، فالتفت إلى مزاحم وقال :

ما هذا ؟

قال مزاحم :

---

(١) البراذين : جمع برذون : نوع من الدواب يخالف الخيل ، عظيم الخلقة ، غليظ الأعضاء .
(٢) المطهمة : تامة الحسن .
(٣) أوفق لى : أحسن وأفضل .

هذا احتفاء بتوليك الخلافة .

فقال :

ما لى ولهذا ، ضم كل ذلك إلى بيت مال المسلمين .

وبلغوا دار الخلافة ، فقالوا له :

ألا تنزل ؟

قال :

لا أنزل إلا فى منزلى .

كانت دار الخلافة تسمى الدار الخضراء ، وفيها تجرى أمور الناس وكان ينزل بها عادة الخلفاء ، فلم يقبل أن ينزل بها إلا بعد أن يغادرها أهل بيت الخليفة السابق فاستحسن الناس ذلك منه .

وفى داره استدعى الخليفة أحد كتبته ، وراح يملى عليه صيغة كتاب الخليفة السابق سليمان بن عبد الملك الذى عقد فيه ولاية العهد لمن يأتى بعده .

ولم تمر إلّا أيام قليلة حتى وصلت الموافقة الإجماعية على خلافة عمر ابن عبد العزيز .

* * *

ذهب الخليفة عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى دار الخلافة التى سيلقى فيها الرعية ، وفى هذه الدار استقبله أهل سليمان ثم قالوا :

هذا لك وهذا لنا .

قال الخليفة :

ما هذا ؟ وما ذاك ؟

قالوا :

هذا مما لبس الخليفة من الثياب ومس من الطيب فهو لولده ، وما لم يمس من الثياب وغيرها ، أو لم يلبس فهو للخليفة بعده .. قال عمر :

ما هذا لى ولا لسليمان ، ولا لكم ، ولكن يا مزاحم ضم هذا كله إلى بيت مال المسلمين .. ففعل .

بقى أمر واحد بعد أن وجدوا أن المراكب والسرادقات والفرش قد ضمها الخليفة إلى بيت المال أنهم أصبحوا أمام أمر الجوارى ، فعرضوها عليه ، ورجوا أن ينالوا منها شيئًا ، وكن فى أجمل صور أتوا بهن من بلاد الجمال البعيدة من الأندلس والروم ومن وراء العراق وكن بالغات فى الحسن والكمال والجمال .

فلما نظر إليهن جعل يسألهن واحدة واحدة من أنت ؟ ولمن كنت ؟ ومن بعث بك ؟

فتخبره كل جارية بأصلها ولمن كانت وكيف أخذت ، فأمر الخليفة برد كل واحدة إلى ذويها وأهلها .

* * *



وتولى عمر الخلافة

وتولى عمر الخلافة

إن القوانين والدساتير التى توضع ليسير عليها الذين يحكمون الشعوب لا يمكن أن تقيم دولة يعيش كل مَنْ فيها سعداء إلا إذا كان الحاكم ينفذ أحكامه دون رغبة أو ميل أو غرض، فهو يسوّى بين جميع الأفراد فيما لهم .. وما عليهم .

* * *

وينبغى أن نعلم أن القوانين والدساتير لا يمكن وحدها أن تحق الحق ، وتبطل الباطل إلا أن تسند إلى الحاكم الذى ينطلق من خلال قوة دافعة يحسها فى أعماقه .

قالوا عن هذه القوة الدافعة :

إنها الضمير أو الزهد أو التقشف أو الشعور بالمسئولية تجاه الغير ، وهذا كله كثيرًا ما يتخطاه الحاكم ، بالتأويلات التى تمليها الرغبات الشخصية والمتطلبات الذاتية التى يخترق بها الحاكم كل قانون وكل دستور .

ووجد من يقول :

إن الضمير كالقانون ثوب فضفاض ، وما أكثر الحكام الذين لبسوه ، وظلوا يوسعونه بأعمالهم ورغباتهم وشهواتهم حتى مزقوه ، وأصبحوا حيتانًا تسبح فى محيط الأغراض والرغبات والميول ، حتى أقنعوا أنفسهم بأنهم أصحاب حق ، وأنهم المخلصون ، ثم حاولوا أن يقنعوا غيرهم بأنهم على الحق الصريح ، وأنهم المخلصون الذين لن يصل إلى مستواهم فى العدل والفهم حكام سابقون ، ولن يصل إليهم حكام لاحقون .

* * *

وهذا ما نراه ونلمسه فى أصحاب الحركات والأحزاب السياسية ، والزعامات التى تسمى نفسها الزعامات الشعبية قامت تدعى مبدأ الديمقراطية أو الاشتراكية وحتى من كانوا قديمًا يسمون بالشيوعيين كيف قاموا بالثورات والحركات السياسية وهم الزهاد والمتقشفون الذين سيفنون حياتهم فى سبيل مصلحة الغير حتى إذا وصلوا إلى الحكم والمناصب العليا ، ولم يطل بهم الطريق تسللوا إلى أنواع الترف والبذخ والمداهنة واللعب بالآمال الكاذبة ، فحققوا لأنفسهم ما أرادوه ، وعاشوا فى القصور كما يعيش الملوك ، فأباحوا لأنفسهم التمتع بالملذات والامتيازات .

ما أكثر هؤلاء ، وما أكثر ما صنعوه لأبنائهم وذويهم وأقاربهم وأتباعهم والمحيطين بهم ، واقتدى بهم فئات ضالة ، فكثر الظلم والطغيان والبغى . ولقد كان حكام بنى أمية وبنى مروان يعيشون فى موقف مثل هذا أو قريب منه حتى جاء عمر بن عبد العزيز .

ما هو موقف الحاكم عمر بن عبد العزيز من هؤلاء عندما تولى أمر المسلمين ؟

هل كان عندما تولى حكم البلاد زاهدًا متقشفًا لنفس الزهد والتقشف ؟ أم كان مخادعًا كبعض رجال الحركات والثورات السياسية ، أم حكم كما حكم بنو أمية وبنو مروان ؟

كلا .. لم يكن رضى الله عنه من هؤلاء ولا هؤلاء وإنما كانت ميزته الكبرى ، وسيمته التى اتسم بها ، والصفة التى تحلى بها ، وكان الدافع له ، ولمنهاجه القويم الإيمان القوى — من غير لبس أو تأويل أو غفلة أو استغفال — الإيمان القوى بالدار الآخرة بما فيها من ثواب وعقاب وخشية الله ، والخوف من عذابه ، وأنه سيقف بين يدى أحكم الحاكمين ، وسَتُعْرض عليه أعماله صغرت أم كبرت وسيحاسب عليها كلها ، فعليه أن يتقى الله ، وأن يعمل حسابًا لكل أعماله .

لقد آثر الحياة الآخرة على الحياة الدنيا ، فما عند الله خير وأبقى اعتقادًا وإيمانًا بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

ومعنى الحيوان هنا : الحياة ؛ فالحياة الدنيا فانية ، والحياة الحقيقية هى الحياة الآخرة ، وهذا تسليم بقول النبى ﷺ : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » .

كان إيمانه صادقًا أمينًا ، وكانت خشية الله والخوف منه شديدًا ، كان كثيرًا ما يقول لزوجته :

يا فاطمة ! .. إنى أخاف النار .. إنى أخاف إن عصيت ربى عذابًا عظيمًا .

كان يبدو لعمر كما لو كانت النار لم تخلق إلا له ، وكثيرًا ما كان البكاء يغلب عليه ، وهو على المنبر فلا يستطيع أن يتكلم من شدة البكاء .

كان رضى الله عنه إذ يتذاكر مع الفقهاء والعلماء فى موضوع يهم رعاياه ، ويخفف من مشاكلهم ، فإذا به يصرفهم إلى ذكر الموت والقيامة والآخرة ، ثم يبكى من شدة الخوف من الظلم ومن المعصية ولقاء الله إذا ما تهاون فى أمر من أمور الرعية ، ويستمر فى البكاء حتى تجرى دموعه على لحيته ، وكان دائمًا يقول :

اللهم إن كنت تعلم أنى أخاف يومًا غير يوم القيامة فلا تؤمن خوفى .

* * *

هذا الخوف الشديد من يوم الآخرة ، وهذه الرهبة من لقاء الله لم تأته إلا يوم أن تولى الخلافة ، وأصبح مسئولًا عن جمع من الناس ، لذلك كان عليه أن يغير حياته تغييرًا كاملًا ، ويحق لنا أن نقول :

---

(١) سورة العنكبوت الآية : ٦٤ .

إن عمر بن عبد العزيز عاش حياته التى لم تتجاوز الأربعين سنة حياتين : حياة ما قبل توليه الخلافة ، وحياة بعد أن تولى الخلافة .

فحياته قبل الخلافة قضاها وهو يتقلب فى ترف وبذخ ونعيم ، فقد استوفى نصيبه من متاع الدنيا ، فاستمتع بما أباح الله للناس .

كان يكثر من الثياب ذات الثمن واللون والقيمة ، وكان التاجر يأتيه بالثوب من الحرير أو الخز أو الديباج فيعيبه بخشونة فى ملسمه ، ويود أن يكون أرق من ذلك وأنعم .

يروى عن رياح بن عبيدة قال :

كنت أتجر فقال لى عمر بن عبد العزيز :

يا رياح : اتخذ لى كسائين خزًا .. اتخذ أحدهما مجلسًا والآخر شعارًا .. ففعلت ، فصبغتهما بالبصرة ، ثم قدمت بهما عينة ، فأمر بقبضهما ، فلما أصبح غدوت عليه ، فقال لى :

يا رياح : ما أجود ثوبيك لولا خشونة فيهما .

كان يكثر من استعمال الطيب والعطور حتى كانت تعرف رائحته ، وهو قادم أو مار قبل أن يراه الناس ، وكان الناس يذهبون إلى الغسال الذى يغسل ثياب عمر ، ويرجونه أن يغسل ثيابهم عقب ثيابه ، لتنال ثيابهم من عطر ثيابه الذى يسرف فيه من استعمال العطر والطيب ، وكان مغرمًا باستعمال العنبر والقرنفل وغيرهما من ألوان العطور .

كان يتخذ طعامه من أصناف ما لذ وطاب من خير اللحوم وأحسنها ، ومن خير الفاكهة وأنواعها ، ومن أصناف الحلوى العربية والفارسية وأطيبها .

كان يتختم بالجواهر النادرة البراقة ، ويرخى شعره ويسبل إزاره ، ويتبختر ويختال فى مشيته حتى عرفت مشيته (بالمشية العمرية) وكانت الجوارى يتعلمنها من حسنها .

أما بعد أن تولى الخلافة فقد تغيرت حياته تغيرًا كاملًا بحيث يستغرب هذا التطور المفاجئ بين يوم وليلة ، ويدعو إلى العجب والدهشة ، فالرجل الذى كان آية فى الرفاهية أصبح راهبًا وزاهداً فى كل شىء .

يقول رياح بن عبيدة :

فلما تولى عمر الخلافة قال لى :

اتخذ لى من هذه الجباب الهروية ثوبًا ، وكانت من الصوف ، فاشتريت له ثلاث شقاق ، فقطعت من الثلاث جبتين ، ثم أتيت بهما إليه ، فقبضهما فقال لى :

يا رياح : ما أحسن ثوبيك لولا لين فيهما .

فما أعجب قول عمر فى الحالين !!

لقد كان ثوب الخز بعشرة دنانير ، وجبة الصوف كانت بدينار فقال له رياح يذكر له ما قاله فى ثوبه الحرير :

عجبًا تستخشن الخز بالأمس ، وتستلين الصوف اليوم !!

فقال عمر رضى الله عنه :

تلك حال ، وهذه حال .

* * *

من أجل الخوف من الآخرة ، ومن حساب الله له ، والخوف من العقاب ترك فى حياته الثانية العطور والخيلاء والزينة والمتاع ، وكان يقول لمزاحم :

إذا رأيتنى أختال فى مشيتى من غير قصد فنبهنى لكى أعتدل .

اقتصد فى كل شىء حتى المبانى التى كان يسكنها عاهد الله ألا يزيد على القديم منها ، ولم يبن لنفسه بناءً قط .

حتى فى طعامه وكان فى حياته الأولى يتخذ مما لذ وطاب أصبح يأكل الثوم بدقّه مع الزيت ، أو الثوم بالزيت والملح .

كان يكثر من أكل العدس ، ويقول عمر لميمون بن مهران من رجاله :
يا ميمون : إنا نأكل هذه الشجرة (العدس) وهى ما علمت مرققة للقلب مغزرة للدمع ، مذلة للجسد .

ومن أجل الآخرة انصرف عن قول الشعر ، وكان يقوله أحيانًا مغنيًا ، وكان له صوت حسن ، ويسمع الشعر واللهو والطرب ، وانصرف عن كل هذا إلى العبادة والتلاوة وقراءة القرآن .

صار يترقب مجئ وقت الصلاة ليسارع إذا نودى إليها ، وأحيانًا يذكّر المؤذن بالأذان إذا تباطأ عنه ، ولقد كان فى بيته خوخة من جهة الغرب يرى منها غروب الشمس ، فكان إذا أبطأ المؤذن للمغرب بعث إليه أن أذن فقد حضر الوقت .

* * *

كان يصلى الوتر فلا يكلم أحدًا بعد ذلك ، ولقد صلى العشاء ثم تنفل ، ثم احتبى ، فافتتح سورة الأنفال فما زال يرددها ويقرأ ، وكلما مر بآية عذاب تضرع ، وكلما مر بآية رحمة دعا .. حتى أذن الفجر .

كان لا يدع أيام الصيام فيصومها ، وكان يصوم الاثنين والخميس ، وكان لا يدع النظر فى المصحف كل يوم ، وقلما يدع يومًا يقرأ فى المصحف بالغداة فلا يطيل .

ومن شعره الذى أنشده قوله :

أنا ميت وعز من لا يموت ... قد تيقنت أننى سأموت
ليس مُلك يزيله الموت ملكا ... إنما الملك ملك من لا يموت

وكان دائمًا يردد هذا البيت :

ولا خير فى عيش امرئ لم يكن له ... من الله فى دار القرار نصيب

* * *

هذا شيء قليل من حياة عمر بن عبدالعزيز الخاصة به بعد توليه الخلافة .. أما حياته مع رعيته ، فقد كان شديد الانتباه لكل صغيرة وكبيرة يعتبر نفسه مسئولًا أمام الله عنها ، وإذا كان يرى أن الخوف يجب أن يكون لله وحده ؛ لأن الخوف من الله سبحانه وتعالى يدعو عمر إلى الاقتراب منه ، والمسارعة إلى طاعته والعمل على مرضاته ، فقد كان أول عمل قام به بعد الإجماع على خلافته أمور ثلاث ، وضعت فى أول قائمة العمل .

١ - سارع الخليفة فأرسل إلى مسلمة بن عبدالملك أن يعود سريعًا بما بقى من جيش المسلمين ، وكان قد خرج للغزو فى عهد سليمان حتى وصل إلى القسطنطينية وحاصرها وكادت أن تسلم نفسها له ، إلا أن مسلمة وقع فى خطأ شنيع ، فقد تفاوض معه قائد حامية المدينة ، فطلب منه القائد أن يعطيه تموينًا للمدينة على أن يسلمها له فأعطاه مسلمة كل ما عنده من تموين ، ولكن قائد الحمية غدر به فأخذ التموين وأغلق أبواب المدينة ، واستعد بما أخذ من تموين لحرب مسلمة ، وكانت خطوط تموين جيش المسلمين قد انقطعت عنه ، وأصبح الجيش عاجزًا عن أن يقوم بعمل جاد ، وأُجهد الناس ، ولم يفد إصرار مسلمة على الوقوف مكانه حتى آخر رجل كما قال ، فكان هذا الإصرار من غير فائدة سوى الهلاك .

فلما ولى عمر خاف أن يُسأل أمام الله جل وعلا عن أرواح البقية الباقية من الجيش المتداعى ، فأعانه عمر على القفول من القسطنطينية بأموال بعث بها وكتب إليه يقول :

(لَرجل من المسلمين أحب إلىّ من الروم وما حوت)

٢ - كتب إلى أسامة بن زيد التنوخى ، وكان على خراج مصر بعزله عن صدقاتها ، ويأمره بتقديم حسابه ، وكان أسامة هذا يجمع الأموال بلا حق ، وبلا سبب مشروع ، فيغدقها على نفسه ، وعلى حاشية الخليفة سليمان بدمشق .

٣ – كتب إلى يزيد بن أبى مسلم يعزله عن أفريقية ، ويأمره بتقديم حسابه .. وكان الخليفة يلقبه بالطاغية ، ولقد وصل الظلم بهذا الطاغية إلى الحد الذى كان يجد متعة فى إذلال الناس بغير حق ، ويتلذذ برؤيتهم ، وهو ينكل بهم ويسومهم العذاب .

ثم بعد ذلك عزل يزيد بن المهلب وحبسه ، وكان سليمان قد ولاه أمر العراق ، ثم ولاه خراسان .

دعاه الخليفة وسأله عن الأموال التى كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فلما أنكر قال له الخليفة :

ما أجد فى أمرك إلا حبسك ، فاتق الله ، وأدِ ما قِبَلك ؛ فإنها حقوق المسلمين ، ولا ينبغى تركها .. وأمر به فحبس .

* * *

كان عمر يرى أن الولاة فى ولايتهم كالخلفاء يقتدى بهم الناس ، ويقلدونهم فى كل ما يعملون ، ويتخذونهم مُثُلًا عليا ، فإن كان الوالى مصلحًا صلح الناس ، وإن كان مفسدًا فسد الناس ، وتلك قاعدة عامة : الناس على دين ملوكهم وولاتهم ، ولهذه القاعدة أمثلة وقرائن على طول الأزمان والقرون حتى زماننا هذا .

ففى زمن الخليفة الوليد بن عبد الملك ابن عم عمر بن عبد العزيز كان يحب بناء القصور وتشييدها فَشُغِل من استطاع من الرعية ببناء القصور وتشييدها وتفننوا فى ذلك .

وفى عهد سليمان تفنن الناس فى الأطعمة والأشربة ، والجوارى والنساء ، فراح كل واحد يتحدث عما يأكل ويشرب ويجمع من الجوارى والنساء .. ذلك لأن سليمان بن عبد الملك الذى كتب ولاية العهد لابن عمه عمر بن عبد العزيز كان يعشق الأطعمة والأشربة ويقتنى الجوارى الحسان والنساء على أشكالها وألوانها .

وعمر بن عبد العزيز يرى أنه كلما كان الحاكم والوالى فى ولايته قد تربى تربية حسنة فى بيت قد صلح أهله، وتأسس على تقوى راع فيها حقوق الغير، وجعل له مثلًا أعلى يدور فى محيطه فغالبًا ما يكون ناجحًا فى عمله، فيؤدى رسالته وقد رضى عنه الناس فاتخذوه قدوة وإمامًا، ويكون المولى سبحانه وتعالى قد رضى عنه .

* * *

لذلك فقد اختار أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز عماله على الولايات من الصالحين الذين يقتدى بهم، واطمأن إلى أنهم سيقومون بأعمالهم خير قيام، ولم يركز السلطة فى يد واحدة، وإنما أشار عليهم أن يتحركوا فى محيط الصالح العام لأفراد الأمة، وأن لا يكونوا إمعات يرجعون إلى الرؤساء فى كل صغير وكبير إلا فى أشياء عدها بنفسه منها قطع يد السارق، فلا تقطع يد إلا بعرض موضوعها عليه، وكذلك لا يقتل إنسان فى جريمة إلا بعد دراسة الخليفة لأسباب هذا الحكم حتى يوافق على القصاص .

لم يكتف بالأخبار بل كان يتابع ذلك بإرسال رسله، والتحقق فيما يأتى من أخبار وكان يرسل دوريات من الرسائل التى توجه الولاة إلى الطريق المستقيم وإلى العظة والتذكير فى كتب خاصة وكتب عامة نذكر طرفًا منها .

* * *

كتب إلى عامله على الكوفة :

أما بعد :

فإن أهل الكوفة أصابهم بلاء شديد، وجور فى أحكام الله، وسنة سنها عليهم عمال السوء، وإن قوام الدين العدل والإحسان فلا يكونن شىء أهم إليك من نفسك، فلا تُحَمِّلها ولو قليلًا من الإثم، ولا تحمل خرابًا على

عامر ، وخذ منه ما أطاق ، وأصلحه حتى يعمر ، فاتبع فى ذلك أمرى ، فإنى قد وليتك من ذلك ما ولانى الله ، ولا تعجل دونى بقطع يد السارق أو صلب حتى تراجعنى فيه ، وانظر من أراد من الذرية أن يحج فعجل له مائة ليحج بها والسلام .

وكتب إلى عامله على سمرقند

... اعمل خانات (فنادق) فمن مر بك من المسلمين فأقروه يومًا وليلة ، وتعهدوا دوابهم ، ومن كانت به علة فأقروه يومين وليلتين ، وإن كان منقطعًا فأبلغه بلده .

وكتب إلى والى حمص قال فيه :

... انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا ، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابى هذا ، وإن خير الخير أعجله .. والسلام .

وكتب إلى أحد الولاة قال :

... أما بعد :

فإن من ابتلى من أمر السلطان بشىء ، فقد ابتلى ببلية عظيمة ، فتسأل الله عافيته وعونه ، وإنى أدعوك أن تقف نفسك فى سرك وعلانيتك عند الذى ترجو به النجاة من ربك .

تذكّر ما سلف منك من خطأ فأَصْلِحه قبل أن يتولى صلاحه غيرك ، ولا يمنعك من ذلك قول الناس ، وكن لمن ولاك الله أمرهم ناصحًا فى دينهم وأعراضهم ، واستر كل عوراتهم ، واملك زمام نفسك تجاههم إذا هويت وإذا غضبت .

* * *

سبحان من أعطى عمر بن عبد العزيز هذه العقلية الفذة ، والقدرة

العجيبة ، والعبقرية الكامنة فى أعماله وتوجيهاته كان يرد سريعًا على كل رسالة يسأل عنها صاحبها فى أمر من أمور الدنيا أو أمور الآخرة ، وكان رده واضحًا صريحًا مستمدًا من رسالة السماء ومن أقوال رسول الله ﷺ ، ومما كان عليه الخلفاء الراشدون ثم من اجتهاده الذى يستمده من دينه ومن نفسه الصافية التى استمدت تعاليمها من الحنيفية السمحاء .

شكا إليه بعض العمال على الولايات أن أهل الذمة بدأوا يقبلون على الإسلام فى عدد كبير ، وقد انتشر فيهم الإسلام ، وأصبحت هذه القضية تشغل عقول المشرفين على بيت المال .

ذلك أن الجزية التى يفرضها الإسلام على أهل الذمة ، ولو كانت بمقدار طفيف ، يتضاءل بجانب ما يتمتعون به من حقوق ، وما يعفون عنه من خدمات من أعظم موارد بيت المال ، فإذا أسلم هؤلاء سقطت عنهم الجزية ، وخسرت مالية الدولة الإسلامية خسارة باهظة .

بلغت هذه الشكوى أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، فأجاب عنها فى هدوء وثقة وكتب إليه :

(إن الله جل ثناؤه بعث محمدًا ﷺ داعيًا إلى الإسلام ، ولم يبعثه جابيًا)

قالوا :

لقد طبق هذا على حكومته الواسعة تطبيقًا دقيقًا ، فإذا تعارضت المصلحة المالية مع مصلحة من مصالح الشريعة رجح المصلحة الشرعية ، والحكم الشرعى على المصلحة المالية ، ولم يتردد يدل على ذلك دلالة واضحة ، وعلى إيمانه بهذا المبدأ كتابه الذى كتبه إلى عامله على اليمن عروة ابن محمد يقول فيه :

... أما بعد :

فإنك كتبت إلىّ تذكر أنك قدمت اليمن ، فوجدت على أهلها ضريبة

من الخراج مضروبة ، ثابتة فى أعناقهم كالجزية ، يؤدونها على كل حال ، إن أخصبوا أو أجدبوا وحيوا أو ماتوا .

فسبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، ثم سبحان الله رب العالمين ، إذا أتاك كتابى هذا ، فدع ما تنكر من الباطل إلى ما تعرفه من الحق ، ثم ائتنف الحق فاعمل به بالغًا بى وبك ، وإن أحاط بمهج أنفسنا وإن لم ترفع إلىّ من جميع اليمن إلا حفنة من كتم[1] ، فقد علم الله أنى بها مسرور إذا كانت موافقة للحق والسلام .

وبهذا نرى أمير المؤمنين يطبق منهاجه فى الحكم تطبيقًا دقيقًا فإذا تعارضت — كما قالوا — المصلحة المالية مع مصالح الشريعة ، رجح المصلحة الشرعية والحكم الشرعى على المصلحة المالية ولم يتردد .

* * *

ونرى الخليفة عمر يلغى كل ضريبة مستحدثة بعيدة عما أقرها الدين وما سار عليه الخلفاء الراشدون ، ولقد أحدث خلفاء بنى أمية من قبله ضريبة المكاس ممن يدخل البلد من التجار ، وكان موردًا عظيمًا يجلب المال الكثير للدولة وقال رضى الله عنه :

وأما المكس فإنه البخس الذى نهى الله عنه فقال :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[2] .

وحط العشور والضرائب التى فرضتها الحكومة من قبله وقال :

(فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم إذا أدوها فى بيت المال كانت لهم بها البراءة ، فليس عليهم فى عامهم ذلك فى أموالهم تباعة) .

وفتح طريق البر والبحر للتجارة الحرة ، ومنع الضرائب والمكوس وقال :

(أما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر قال الله سبحانه وتعالى :

---

(١) الكتم : ثياب جبلى لا قيمة له تذكر .

(٢) سورة هود الآية : ٨٥ ، سورة الشعراء الآية : ١٨٣ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ... ﴾ [1]
فأذن عمر أن يتجر فيه من شاء ، ويرى ألا يحول بين أحد من الناس وبينه ، فإن البر والبحر لله جميعًا سخرهما لعباده يبتغون فيهما من فضله ، فكيف يحال بين عباد الله وبين معائشهم) .

* * *

وحرم على الولاة وموظفى الدولة أن يتجروا ، لأن التجارة من الولاة وأعوانهم مفسدة للجباية وكتب إليهم يقول :

(ونرى أن لا يتجر إمام ، ولا يحل لعاملٍ تجارة فى سلطانه الذى هو عليه ، فإن الأمير متى يتجر ليستأثر ، ويصيب أمورًا فيها عنت ، وإن حرص على ألا يفعل) .

* * *

وحرم السخرة بأنواعها ، وهذا ما درجت عليه الحكومات ، وكان من آثارها الأهرام فى مصر ، ومبانى رومة العظيمة فقال رضى الله عنه :

(ونرى أن توضع السخرة عن أهل الأرض ؛ فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم) .

* * *

لم يترك أمير المؤمنين منفذًا من منافذ السوء إلا سده ولا طريقًا للخيانة إلا نبه إليه وأبعد عنه الولاة والموظفين التابعين لهم ، ومن هذا المنفذ قبول الهدايا ، واعتبروها سنة عن النبى ﷺ ولكن عمر حرمها ، وقال فى هدية أهديت إليه ، وقد قال مقدمها له :

---

(١) سورة الجاثية الآية : ١٢ .

قد كان رسول الله ﷺ يقبل الهدية . وقال أمير المؤمنين :
(هو لرسول الله ﷺ هدية ، وهو لنا رشوة لا حاجة لى به) .

* * *

كان له جهاز يتتبع شئون الولايات ، فهو لا يستطيع أن يتتبع كل شىء بنفسه ؛ لأن الدولة اتسعت رقعتها طولًا وعرضًا ، ودخلها أجناس مختلفة من الصين إلى آخر بلاد المغرب والأندلس ، فجعل مكافأة لمن يخبره بحقيقة الحال أو يشير عليه بشىء فيه مصلحة للمسلمين ، ومصلحة لدولتهم ، وكتب فى ذلك كتابًا وزعه على الأمصار والولايات :

... أما بعد :

(فأيما رجل قدم إلينا فى رد مظلمة أو أمر يصلح الله سبحانه وتعالى به خاصًا أو عامًا من أمر الدين ، فله ما بين مائة دينار إلى ثلاثمائة دينار ، بقدر ما يرى الحسبة وبعد سفر ، لعل الله يحيى به حقًا أو يميت باطلًا أو يفتح من ورائه خيراً) .

* * *

ثم نذكر هنا كتابًا عامًا أرسله إلى عماله جميعًا ، وطلب منهم أن تقرأه الرعية ، لتعلم ما فيه ، ثم تكون على علم ودراية ، وأن تكون طوع ما يأتمر به العمال والولاة .

كتب إليهم رسالة واحدة جاء فيها :

من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى العمال .

أما بعد :

فإن الله بعث محمدًا ﴿ ..بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ (1) وإن دين الله الذى بعث به

(1) سورة التوبة الآية : ٣٢ .

محمدًا ﷺ هو كتابه الذى أنزل عليه أن يطاع الله سبحانه وتعالى فيه ، ويتبع أمره ، ويجتنب ما نهى عنه ، وتقام حدوده ، ويعمل بفرائضه ، ويحل حلاله ، ويحرم حرامه ، ويعترف بحقه ، ويحكم بما أنزل فيه ، فمن اتبع هدى الله اهتدى ، ومن صد عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [1] وإن من طاعة الله ــ سبحانه وتعالى ــ التى أنزل فيها كتابه ، أن يدعو الناس إلى الإسلام كافة ، وأن يفتح لأهل الإسلام باب الهجرة ، وأن توضع الصدقات والأخماس على قضاء الله وفرائضه .

إن هذا الأمر الذى ولانى الله ــ سبحانه وتعالى ــ لو كنت أصبحت ورغبتى فيه مطعم أو ملبس أو مركب أو اتخاذ أزواج وأموال ، لكنت قد بلغ الله ــ سبحانه وتعالى ــ بى من ذلك قبل ما ولانى أفضل ما بلغ بعباده .

ولكن أصبحت بعدما ولانى خائفًا .. أعلم أن فيه أمرًا عظيمًا وحسابًا شديدًا ، ومسألة غليظة عند مجاهدة الخصوم بين يد الله ــ سبحانه وتعالى ــ إلا ما عافى الله تعالى عليه ورحم .

* * *

وإنى آمرك فيما وليتك من عملى ، وأفضيت إليك من أمرى بتقوى الله ــ سبحانه وتعالى ــ وأداء الأمانة ، واتباع ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى عنه سبحانه وتعالى ، وقلة الالتفات إلى شىء خالف ذلك ؛ ليكون الذى آمرك به فى سيرتك ، والنظر فى نفسك وفى عملك ، وما تقضى به إلى ربك سبحانه ، وما تعمل به فيما بينك وبين الرعية قِبَلَك .

وأنت تعلم علمًا يقينًا أنه ليست نجاة إلا أن تنزل بذلك المنزل من طاعة الله سبحانه ، ودع أن ترصد شيئًا ليوم ترجوه أو تخافه سوى ما ترجوه غدًا من الله وتخاف منه ؛ فإنك قد رأيت عِبَرًا فى نفسك ، وعِبَرًا مثلها وعَظَ مِثْلَكِ !

* * *

(1) سورة البقرة الآية : ١٠٨ .

إن الله ــ سبحانه وتعالى ــ بعث محمدًا ﷺ للناس كافة فقال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (١) .

وقال الله تبارك وتعالى فيما يأمر به المؤمنين من شأن المشركين :

﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (٢)

فهذا قضاؤه وحكمه ، فاتباع الله طاعة ، وتركه معصية ، فادع إلى الإسلام فإن الله تعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ... ﴾ (٣) .

فمن أسلم من نصرانى أو يهودى أو مجوسى من أهل الجزية اليوم فخالط المسلمين فى دارهم ، وفارق داره التى كان بها ، فإن له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه .

فأما من كان محاربًا ، فليدع إلى الإسلام قبل أن يقاتل ، فإن أسلم فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وله ما أسلم عليه من أهل ومال .

وإن كان من أهل الكتاب ، فأعطى الجزية ، وأمسك بدينه فإنّا نقبل ذلك منه .

* * *

وأما الهجرة فإنا نفتحها لمن هاجر من أعرابى فباع ماشيته ، وانتقل من دار أعرابيته إلى دار الهجرة ، وإلى قتال عدونا ، فمن فعل ذلك فله أسوة المهاجرين فيما أفاء الله عليهم .

(١) سورة سبأ الآية : ٢٨ .
(٢) سورة التوبة الآية : ١١ .
(٣) سورة فصلت الآية : ٣٣ .

وإن الله ــ سبحانه وتعالى ــ نعت المؤمنين عند ذكره الفيء فجعله للفقراء والمهاجرين .

﴿ ... وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ ... ﴾ (١)

والذين جاءوا من بعدهم ثم قال تعالى :

﴿ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴾ (٢)

وقد كان المهاجرون يجاهدون على غير عطاء ولا رزق يجرى عليهم ، فيوسع الله ــ سبحانه وتعالى ــ عليهم ، ويعظم الفتح لهم ولمن تأسى بهم ، وعمل بصالح سنتهم ممن يحبون من إخوانهم ، ليوجبن الله ــ سبحانه وتعالى ــ له الأجر فى الآخرة ، وليعظمن له الفتح فى الآخرة .

* * *

وأما الصدقات فإن الله تبارك وتعالى فرضها وسمى أهلها حين طعن أناس ، وبلغوا فيها تهمة نبيهم فقال سبحانه :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ (٣) .

فقال تبارك وتعالى عند ذلك :

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَٰكِينِ وَالْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (٤) .

فبين رسول الله ﷺ صدقة الأموال : الحرث ، والمواشى ، والذهب والوَرِق ــ أى الفضة .

(١) سورة الحشر الآية : ٩ .
(٢) سورة الجمعة الآية : ٣ .
(٣) سورة التوبة الآية : ٥٨ .
(٤) سورة التوبة الآية : ٦٠ .

وتؤخذ الصدقات كما بيّن رسول الله ﷺ وفرض ، لا يظلمون ولا يتعدّى عليهم ، ولا يحابى بها قريب ، ولا يمنعها أهلها .

* * *

وأما الخمس فإن من مضى من الأئمة — الخلفاء — اختلفوا فى موضعه ، فطعن فى ذلك طاعن من الناس وأكثر فيه ، ووضع مواضع شتى .

فنظرنا فإذا هو على سهام الفىء فى كتاب الله — سبحانه وتعالى — لم يخالف واحد من الآيتين الأخرى ، فإذا عمر بن الخطاب رحمه الله قد قضى فى الفىء قضاء قد رضى به المسلمون ، ففرض للناس أعطية وأرزاقًا جارية لهم ، ورأى أن يبلغ بتلك الأبواب ما جمع من ذلك ورأى أن فيه لليتيم والمسكين وابن السبيل .

فرأى أن يلحق الخمس بالفىء وأن يوضع مواضعه التى سمّى الله سبحانه وفرض ، ولم يفعل ذلك إلا ليتنزه منه ، وخيفة التوهم فيه ! فاقتدوا بإمام عادل فإن الآيتين متفقتان : آية الفىء ، وآية الخمس ؛ فإن الله تعالى يقول :

﴿ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ... ﴾ (1) .

وكذلك فرض الله سبحانه وتعالى الخمس فنرى أن يجمعا جميعًا ، فيجعلا فيئًا للمسلمين ولا يُسْتأثر عليهم ، ولا يكون ﴿ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ (2) .

* * *

---

(1) سورة الحشر الآية : ٧ .
(2) سورة الحشر الآية : ٧ .

ثم إن المكيال والميزان نرى فيهما أمورًا علم من يأتيها أنها ظلم .. فنرى أن إتمام مكيال الأرض وميزانها أن يكون واحدًا فى جميع الأرض كلها .

* * *

ونرى أن لا يتجر إمام، ولا يحل لعامل تجارة فى سلطانه الذى هو عليه، فإن الأمير متى يستأثر ويصيب أمورًا فيها عنت وإن حرص على أن لا يفعل .

* * *

وإن استطعت أن تكون فى العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان قبلك فى الظلم والفجور والعدوان فافعل، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ونرى أن توضع السخرة على أهل الأرض ، فإن غايتها أمور يدخل فيها الظلم .

ونرى أن تردوا المظالم والغصوب إلى أهلها .

ونرى أن تُرَدَّ المزارع لما جمعت له ، فإنما جعلت لأرزاق المسلمين عامة فإن أمر العامة هو أعظم للنفع ، وأعظم للبركة .

* * *

كان أمير المؤمنين يرى أن الوالى هو كالرأس بالنسبة للإنسان وأنه إذا صلح صلح باقى الجسد؛ لذلك كان دائمًا يتولاه بالنصيحة وبالموعظة أحيانًا ، ثم إنه دائمًا يذكره بالآخرة وما عند الله ويخوفه من العقاب الشديد فى الآخرة .

وكان مما دعاهم إليه أن يدققوا فى تحقيق القضايا ، وأن يتأنوا فى الحكم ، وأن يحكموا بالبينة والدليل ، وأن يبتعدوا عن الظنة أو الشبهة .

يقول الخليفة عمر بن عبد العزيز :

إذا جاءك الخصم ، وقد فقئت عينه ، فلا تحكم له .. حتى يأتى الخصم الآخر فلعله فقئت عيناه معا .

ويقول الخليفة فى النهى عن الأخذ بالشبهات فى الحدود :

ادرءوا الحدود ما استطعتم فى كل شبهة .. فإن الوالى إذا أخطأ فى العفو ، خير من أن يتعدى فى العقوبة .

* * *

كانت له رسائل إلى عماله تدعو إلى العناية بأخلاق الناس الذين تحت إمرتهم ، وأن من اختاره للولاية لا ينبغى أن يقصر عمله على جباية الأموال ، وحراسة النفوس والأرواح بل عليه أن يرعاهم ويراقبهم فيما يعملون وما يتخلقون به من أخلاق ، فيجمع بين الإدارة والإرشاد ، والسياسة والدعوة ، وهذا ما كان عليه الخلفاء الراشدون ، فلما جاء بنو أمية جعلوا فى أيديهم وأيدى عمالهم جباية الأموال وحراسة النفوس والأرواح لا غير ، ولا شأن لهم بما يعمله الناس فى البيوت وما يتخلقون به من أخلاق ، فاستقل خلفاؤهم بالأعمال الإدارية والمالية ، وانفرد العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والدعوة والإرشاد على خلاف ما كان عليه الرسول ﷺ والخلفاء الراشدون .

جمع عمر بن عبد العزيز هذا وذاك وأصبح مسئولًا عنهما معًا ، وحث عماله على ذلك فى رسائل أرسلها إلى عماله منها رسالة يشدد فيها على العمال بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويذكر ما يحدث من الإخلال بهذه الفريضة من نتائج وخيمة وعقوبات من الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى الدنيا والآخرة كتب رضى الله عنه يقول :

إنه بلغنى أنه قد كثر الفجور فيكم ، وأمن الفساق فى مدائنكم ، وجاهروا من المحارم بأمرٍ لا يحب الله مَنْ فعله ، ولا يرضى المداهنة عليه ، كان لا يظهر مثله فى علانيته قوم يرجون لله وقارًا ، ويخافون منه غَيراً ،

وهم الأعزون الأكثرون من أهل الفجور ، وليس بذلك مضى أمر سلفكم ، ولا بذلك تمت نعمة الله عليهم ..

* * *

وكتب رسالة وزعت على الولاة ينهى فيها عن النياحة واتباع النساء للجنائز والتقاليد الجاهلية التى فشت فى عهده فيقول :

(وتقدم إلى صاحب شرطكم فلا يقرن نوحًا فى دار ولا طريق ، فإن الله قد أمر المؤمنين عند مصائبهم بخير الأمرين فى الدنيا والآخرة فقال تعالى :

﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴾[1] .

* * *

ولقد توسع الناس فى أمر النبيذ ، وتوصلوا منه إلى المسكرات ، ونشأ من ذلك شرور وآفات لم تزل تابعة للخمر ، وقد كتب فى ذلك خاصة رسالة جاء فيها :

(وما يشرب أولئك شرابهم إلا من تحت أيدى الذين يهون عليهم زيغ المسلمين فى دينهم ، ودخولهم فى ما لا يحل لهم مع الذى يجمع نَفَاقَ سلعهم ، ويسارة المؤونة عليهم) .

(إن الله جعل عن الخمور والمسكرات غنى فى المشروبات الجائزة السائغة ، فما يحمل المسلمين على هذا الإثم ؟ وما لأحد من المسلمين عذر أن يشرب ما أشبه ما لا خير فيه من الشراب ؟ فإن الله جعل عنه غنى وسعة من الماء الفرات ، ومن الأشربة التى ليس فى الأنفس منها حاجة من العسل واللبن والسويق ...) .

(١) سورة البقرة الآية : ١٥٦ - ١٥٧ .

لم ينس عمر بن عبد العزيز أن ينشر دعوة الإسلام فى بلاد غير المسلمين فى بقاع الأرض التى عرفها .. تسبقه إليها سيرته العطرة التى انتشر أريجها فى أرجاء الأرض سواء أكان عند المسلمين أم غير المسلمين ، وقد عرف الكل عدله الشامل ، وأفعاله الحميدة .

قال البلاذرى فى فتوح البلدان :

(... وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ملوك الهند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة على أن يملّكهم ، ولهم ما للمسلمين ، وعليهم ما عليهم ، وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا ، وتسموا بأسماء العرب .

ولما ولى إسماعيل بن عبد الله المهاجرى مولى بنى مخزوم بلاد المغرب ، أرسل عمر بن عبد العزيز إليه عشرة من التابعين إلى المغرب لينشروا دعوة الإسلام فى أفريقية وبين البربر الذين لم تبلغهم دعوة الإسلام ، وليفقهوا أهل المغرب فى الدين ، وكان من هؤلاء العلماء والفقهاء : حبان بن أبى جبلة ، وعبد الرحمن بن نافع ، وسعد بن مسعود التُجيبى .

سار من أرسلهم عمر أحسن سيرة ، ودعوا البربر وهم قوم ملتزمون لهم عاداتهم وتقاليدهم لكنهم أحبوا الإسلام ، وبهم استطاع القادة المسلمون فتح ما استعصى عليهم من بلاد الأندلس ، ولم ينس أن يرسل إليهم عمر رسائله يدعوهم إلى الإسلام ، فقرأها عليهم عامله إسماعيل ، فاستجابوا وانتشر الإسلام فى القبائل ، وفى أرجاء الصحراء الكبرى .

وكذلك فقد أرسل رسائل إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، فأمر وشدد فى أمره أن يعاملوا بما يعامل به المسلمون .

* * *

فى الرسائل التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز يتجلى إيمانه وحماسته وحكمته ، ونحن نقرؤها كأننا نقرأ رسائل عمر بن الخطاب التى

كان يرسلها إلى عماله ، ينصحهم فى رفق وقوة ، وفى صرامة وحكمة ، يجمع بين الإدارة والتذكير ، وبين الإنذار والتبشير ، وهذا شأن الحكم الإسلامى الصحيح ، وأيضًا فهذا تفسير لما أشارت إليه الآية :

﴿ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴾ (٢) .

* * *

ولقد نفذ العمال والولاة كل ما أمر به أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، ، وأصبحوا طوع أمره ، وساد البلاد الأمن والطمأنينة ، ولكن ذلك لم ينسه أن يطلب لنفسه الموعظة من أهلها ، وأن يبحث عمن يذكّره ويخوفه حتى يظل واقفًا على باب ربه يطلب منه العون والمساعدة على أداء مهمته الصعبة التى تعلقت برقبته ، وأصبح مسئولًا عنها أمام أحكم الحاكمين .

كتب رضى الله عنه إلى الزاهدَيْن الحسن البصرى ، ومطرف بن عبد الله كتابًا يقول فيه :

(سلام عليكما ، فإنى أحمد الله إليكما الذى لا إله إلا هو ، وأسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله .

أما بعد :

فإنى أوصيكما بتقوى الله ، فإن من يقولها كثير ، ومن يعمل بها قليل ، فإذا أتاكما كتابى فعظانى ولا تزكيانى والسلام .

فكتب إليه الحسن البصرى :

(سلام عليك فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو .

أما بعد :

فإن الدار مخوفة ، هبط إليها آدم عليه السلام عقوبة ! تُهين من أكرمها ،

---

(١) سورة الحج الآية : ٤١ .

وتُكرم من أهانها ، وتفقر من جمع لها ! ولها فى كل يوم قتيل .

فكن يا أمير المؤمنين كالمداوى لجرحه ، واصبر على شدة الدواء لما تخاف من طول البلاء) .

وكتب إليه مطرف بن عبد الله :

(سلام عيك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو .

أما بعد :

فليكن استئناسك بالله ، وانقطاعك إليه ، وإن قوما أنسوا بالله ، وانقطعوا إليه ، فكانوا بالله فى وحدتهم أشد استئناسًا منهم بالناس فى كثرة عددهم ، وأماتوا من الدنيا ما خافوا أن يميت قلوبهم ، وتركوا منها ما علموا أنه سيتركهم ، فأصبحوا لما سالم الناس منها أعداء .

جعلنا الله سبحانه وإياك منهم ، فإنهم قد أصبحوا بها قليلًا والسلام) .

* * *

- عمر والقرآن الكريم
- تدوين السنة
- منع لعن علي في الخطب
- عمر بن عبد العزيز والخوارج
- كلمات عمرية

عمر بن عبد العزيز
والقرآن الكريم

القرآن الكريم هو الدستور الذى أخذ منه عمر بن عبد العزيز أحكامه أسوة بما كان عليه من سبقه فى عهد رسول الله ﷺ ، وعهد الخلفاء الراشدين ، فمنه أخذ عمر الأحكام ، وإليه رد الناس إذا اختلفوا فى أمر من الأمور ، ولم يكن هذا من عند نفسه ، فهو متبع لا مبتدع ، فقد تعلم على يد من كان قبله من الفقهاء والعلماء الملتزمين .

والقرآن فيه نبأ مَنْ قبلنا ، ودستورنا الذى نسير عليه فى حياتنا والذى علمنا منه أخبار الآخرة ، من اتبعه سعد فى الدنيا والآخرة .

فيه بجانب أصول الأحكام الدنيوية للبشرية ، والمنهج الذى ينبغى أن يسيروا عليه ، راحة للنفس وشفاء للقلب ، وسمو للروح ، ورفعة للعمل الجاد ، وكفى به أنه من عند خالق البشر ، وهو أعلم بما يسعدهم فى دنياهم وآخرتهم .

عرف الخليفة عمر بن عبد العزيز كل ما سبق بل وأكثر مما سبق بما فتح الله عليه من فهم وتدبر ، حتى قويت صلته بينه وبين الخالق العليم ، فأعطاه مما أعطى عباده المخلصين .

منّ الله عليه ، فحفظ عمر القرآن وهو غلام صغير ، وواظب على قراءته ، كان يألف المصحف ، ولا يكاد يمر عليه يوم دون أن يتناوله ، ويتلو جانبًا منه سواء يريد تثبيت ذلك الجانب إن كان محفوظًا من قبل أو ألمّ به أمر يريد استذكاره واسترجاعه ، أم يريد أن يرجع إليه فى حكم من الأحكام التى يحكم بها بين الناس ؛ فهو يوقن أن الحكم لا يكون إلا بالقرآن ، وأن

القرآن لم يترك شيئًا مما ينبغي أن تكون عليه حياة الناس إلا بيّنه ووضحه صغر أم كبر ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾[1] .

ثم إن الخالق سبحانه وتعالى أمرنا — وهو أعلم بحالنا — أمرنا بأن نحكم بقرآنه ودستوره .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[2] .

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[3] .

﴿ .. وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾[4] .

وعمر هو الرجل الذى عرف ذلك جيدًا فكان مع الله سبحانه وتعالى ، وكان يحكم بما أمر وشرع وبين للخليقة .. كان دائمًا مع الله .. يقبل عليه بالسمع والبصر والفؤاد .. يقظ القلب حاضر اللب .. طاهر الروح .

* * *

كان كثير البكاء حين يتلو كتاب الله ، وقد يشتد به البكاء والنحيب لتفهمه لآى القرآن ، وما ترمى إليه الآيات والسور ، ووقوفه خاشعًا أمام المعانى التى يحار البشر فى معناها فيدرك المقصود الحقيقى منها .

صعد يوم الجمعة المنبر فخطب ، وقرأ قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ... ﴾ حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ (١٢) وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴾[5] .

بكى وأبكى من كان يصلى معه حتى ارتج بالبكاء .

---

(١) سورة الأنعام الآية : ٣٨ .

(٢) سورة المائدة الآية : ٤٥ .

(٣) سورة المائدة الآية : ٤٧ .

(٤) سورة المائدة الآية : ٤٤ .

(٥) سورة التكوير الآية : ١ - ١٣ .

قال لابنه يومًا :

اقرأ .

قال الابن :

ما أقرأ ؟

قال عمر :

اقرأ سورة (ق)[1] .

فقرأ حتى بلغ قوله تعالى :

﴿ وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴾[2] .

فبكى .. ثم قال :

اقرأ .. اقرأ يا بنى !

قال الابن :

ما أقرأ يا أمير المؤمنين ؟!

قال عمر :

اقرأ سورة (ق) ..

حتى إذا بلغ ذكر الموت بكى أيضًا بكاء شديدًا يفعل ذلك مرارًا .

* * *

ومن مظاهر تعلق عمر بالقرآن أنه كان يجعله آخر ما ينطق به في يومه ، فإذا آوى إلى فراشه قرأ ، ويظل يقرأ حتى يغلب عليه النوم .

* * *

(١) سورة (ق) رقم ٥٠ فى ترتيب المصحف .
(٢) سورة (ق) الآية : ١٩ .

تدوين السنة

كان عمر يعرف أن السُّنة لم تدون ، وأنها ما تزال فى ذاكرة الحفاظ وأنها ستنتهى بموت هؤلاء الرواة والحفاظ ، وأنها عرضة لأن يدخل فيها الكثير مما لم يقله الرسول ﷺ .

لقد كان حريصًا شديد الحرص على جمعها وكتابتها خشية اندراسها ونسيانها ، وكان رضى الله عنه على علم برواتها ورجالها ، وقد روى شيئًا منها أيام تعليمه بالمدينة ، فلم يشغله الحكم ولا متاعبه أن يفكر فى هذا التدوين ، ولم تكن قد دونت من قبل مخافة أن تختلط بالقرآن ، فلما أصبحت آيات القرآن وسوره محددة المعالم ولا يخشى أن يختلط به غيره ، كان عمر بن عبد العزيز أول من فكر فى جمع وكتابة السنة .

وقد كتب إلى أحد كبار علماء الحديث ، وأوعية العلم فى عصره : أبى بكر بن حزم فى المدينة :

(انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه ، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء) وأشار عليه بالعناية الخاصة بمجامع عمرة ابنة عبد الرحمن الأنصارية ، وقاسم بن محمد بن أبى بكر لأهميتهما .

ولم يكتف بالكتابة إلى أبى بكر بن حزم هذا ، بل كتب إلى غيره من علماء الأمصار ، فيروى أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى علماء الأمصار :

(انظروا حديث رسول الله ﷺ فاجمعوه) .

ويروى عن سعيد بن زياد قال :

سمعت ابن شهاب الزهرى عالم السنة المعروف يقول : أمرنا عمر بن عبد العزيز بجمع السنن ، فكتبناها فى دفاتر ، فبعث إلى كل أرض له عليها سلطان دفترًا .

ولم يكتف بالحث على ذلك ، بل سعى فى تيسير هذه المهمة فأجرى الرزق على العلماء ، ورتب لهم رواتب ليتوفروا على نشر العلم بعيدًا عن معاناتهم الاكتساب قال محمد الحكم :

(وبعث عمر بن عبد العزيز يزيد بن أبى مالك والحارث بن محمد إلى البادية أن يعلما الناس السنة ، وأجرى عليهم الرزق ، فقبل يزيد ولم يقبل الحارث) .

وقال :

ما كنت لآخذ على علم علمنية الله أجرًا ، فذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز فقال : (ما نعلم بما صنع يزيد بأسًا ، وأكثر الله فينا مثل الحارث) .

وقال الذهبى فى تذكرة الحفاظ :

كان عمر بن عبد العزيز يقرن بالزهرى فى علمه .

وقال مجاهد :

أتيناه لنعلمه فما برحنا حتى تعلمنا منه .

وقد حدّث عنه الزهرى وأبو بكر بن حزم وأبو سلمة بن عبد الرحمن ، وكان حريصًا على نشر العلم الصحيح والسنة النبوية .

والذين روى عنهم :

أنس بن مالك الذى جاوز المائة .. رآه عمر ، وروى عنه ، وصلى أنس خلفه ، ومنهم عبد الله بن عمر ، وهو عم أمه ، وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب المتوفى سنة ٨٠هـ .

وعن جماعة من كبار التابعين منهم سعيد بن المسيب المتوفى سنة ٩٤هـ وعلى رأس علماء التابعين عروة بن الزبير المتوفى سنة ٩٤هـ ، وسالم ابن عبد الله بن عمر المتوفى سنة ١٠٦هـ رضى الله عنهم أجمعين وله مسند باسمه اطلعنا عليه أيام إقامتنا بالمدينة .

* * *

منع عمر لعن علي في الخطب

كان من أصول الحكم عند بنى أمية التقليل من قيمة آل بيت رسول الله ﷺ متمثلين في عليّ بن أبى طالب وأولاده حتى ينساهم الناس، وتحل محلهم مكانة بنى أمية فتحايلوا على ذلك بأساليب شتى وبأحاديث كاذبة عن رسول الله ﷺ وذلك بانتقاص قدر من حضر غزوة بدر ومنهم على بن أبى طالب، ثم شرّع بنو أمية لعن على بن أبى طالب وأولاده فى خطب الجمعة، وكان عمر بن عبد العزيز فى صغره وقد عرف فضل آل البيت يغضب من الذين يسبون عليًا وآل البيت، ويرى أن ذلك أمر جاهلي بعيد كل البعد عن الإسلام، وأصوله، ولم يجرؤ أحد من الخلفاء أو الولاة على أن يطالب بإلغاء هذا اللعن.

كان عمر غاضبًا بقلبه ولم يجرؤ وهو صغير أن يطلب ذلك إلا أنه قال لأبيه عبد العزيز وقد سمعه يتعرض لعلى بالسب فقال له:

يا أبت أراك يعلو صوتك ويشتد حتى إذا وصلت إلى عليّ تتعتعت فقال له والده:

أأدركت هذا يا بنى؟

قال:

نعـم!

قال عبد العزيز:

يا بنى! اعلم أن العوام لو عرفوا عن على بن أبى طالب ما نعرفه نحن لتفرقوا عنا إلى ذريته وولده.

* * *

كان الناس ينكرون هذا بقلوبهم ولا يستطيعون المجاهرة به خوفًا من عقاب الحكام والولاة نذكر منهم سعيد بن المسيب فى خطبة الجمعة فى

المسجد النبوى حينما كان الخطيب الأموى يتعرض فى آخر الخطبة لسب علىّ بن أبى طالب كان الرجل يتأفف من ذلك ، فعلم والى المدينة هشام بن إسماعيل بذلك فطلب من بعض رجاله إن رأوا منه ذلك أن يحصبوه بالحصاة .

ويروى أن هشام بن عبد الملك فى عهد أخيه الخليفة الوليدُ عندما حج وأراد أن يستلم الحجر الأسود لم يطق ازدحام الناس على الحجر ، فنصبوا له منبرًا وجلس ينظر إلى الناس إذ أقبل زين العابدين على بن الحسين فطاف بالبيت فكان كلما بلغ الحجر تنحى له الناس عنه حتى يستلمه .

فقال رجل من أهل الشام :

من هذا الرجل الذى هابه الناس هذه المهابة ؟

فقال هشام ابن الخليفة عبد الملك :

لا أعرفه مخافة أن يرغب الناس فيه ، وكان حوله وجوه أهل الشام فقال الفرزدق الشاعر المشهور : لكننى أنا أعرفه .

قال هشام وهو يزجر الفرزدق :

لا أعرف هذا .

فقال الفرزدق :

بل تعرف هذا ، ونحن نعرف هذا .

هذا سليل حسين وابن فاطمة ... بنت الرسول الذى انجابت به الظُلَم

فغضب عليه هشام ، وأمر بحبسه فحبسوه .. حتى عفا عنه هشام .

* * *

فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ، وأصبح الأمر بيده ، أمر بالكف فورًا عن لعن علىّ وأبنائه من آل البيت ، واستبدل بالكلمات الآثمة التى يلعن بها فوق المنابر آيات من القرآن الكريم :

﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى

قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (1) .

وقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (2) .

* * *

وأراد الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يعبر عمليًا عن حبه وتقديره لآل البيت عندما دخل عليه الحسن بن محمد بن الحسين فإذا به يجثو له على ركبتيه ويقول :

إيه أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة !

فقال الحسن :

يا عمر ! ثلاثة من كن فيه فقد استكمل الإيمان :

من إذا رضى لم يدخل رضاه فى باطل ، ومن إذا غضب لم يخرجه الغضب عن الحق ، ومن إذا قدر لم يتناول ما ليس له .

* * *

لقد سجل الشعراء الكثير من أعمال عمر بن عبد العزيز وفى مقدمة ذلك ما نهى عنه رضى الله عنه من إلغاء السب واللعن لآل البيت ، وموقف الخليفة عمر من الشعراء ، وقد كان بنو أمية وبنو مروان يغدقون عليهم المال الكثير ، فكانوا يتفننون فى القول ، ويطيلون المديح والثناء بالحق وبالباطل ، فلما تولى عمر الخلافة ، جاءه الشعراء من كل مكان ، ووقفوا طويلًا على بابه لعلّه يأذن لهم بالدخول وكان عمر يرى أنه ليس لهم الحق فى أخذ مال المسلمين جزاء قولهم ومدحهم للخليفة .

كان كُثَيِّر عزة واحدًا من الشعراء الذين أتوا إلى دمشق وطال

(1) سورة الحشر الآية : 10 .

(2) سورة النحل الآية : 90 .

انتظارهم ، فنزل كُثيّر ضيفًا على مسلمة بن عبد الملك يريد الدخول على الخليفة عمر ليمدحه ، ولينال منه العطاء قال :

يا أمير المؤمنين : طال الثواء ، وقلت الفائدة ، وتحدثت بجفائك لنا العرب .

فقال :

يا كُثَيّر : أما سمعت قول الله تعالى :

﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [1] .

أفمن هؤلاء أنت ؟

فقلت له وأنا مبتسم :

أنا ابن سبيل ، ومنقطع به .

قال الخليفة :

أولست ضيف أبى سعيد يقصد مسلمة بن عبد الملك ابن عمه .

قال كُثَيّر :

بلى .

قال الخليفة :

ما أحسب من كان ضيف أبى سعيد ابن سبيل ولا منقطعًا به ثم أذن له فى الإنشاء قائلًا :

قل ، ولا تقل إلا حقًا ، فإن الله سيسألك .

قال كُثَيّر : فقلت :

وُلِّيت فلم تشتم عليا ، ولم تخف بريئًا ، ولم تتبع مقالة مجرم
وقلت فصدقت الذى قلت بالذى فعلت ، فأمسى راضيًا كل مسلم

---

(1) سورة التوبة الآية : ٦٠ .

ألا إنما يكفى الفتى بعد زيغه ... من الأود البادى ثقاف المقوم
وقد لبست لبس الهلوك ثيابها ... وأبدت لك الدنيا بكف ومعصم
وتومض أحيانًا بعين مريضة ... وتبسم عن مثل الجمان المنظم
فأعرضت عنها مشمئزًا كأنما ... سقتك مدوفًا من سمام وعلقم
فلما أتاك الملك عفوًا ولم يكن ... لطالب دنيا بعده من تكلم
تركت الذى يفنى وإن كان مونقًا ... وآثرت ما يبقى برأى مصمم
فما بين شرق الأرض والغرب كلها ... مناد ينادى من فصيح وأعجم
يقول أمير المؤمنين ظلمتنى ... بأخذ لدينار ولا أخذ درهم
ولا بسط كف لامرئ ظالم له ... ولا السفك منه ظالما ملء محجم
فلو يستطيع المسلمون لقسموا ... لك الشطر من أعمارهم غير ندّم

* * *

وهذه أبيات صدق .. جمعت كل الصفات التى يتميز بها عمر بن عبد العزيز بدأها بنهيه عن سب على ، ثم عدد الكثير من الصفات التى تحلى بها عمر ، فكانت شهادة صادقة على مر الأزمان والدهور سجل فيها الشاعر ما رأى وشاهد وسمع ، ولا يستطيع أن ينكر أو يمنع ما قيل عن ابن عبد العزيز .

ثم سمح الخليفة للشاعر الأحوص فأنشده وكان مما قاله :

رأيناك لم تعدل عن الحق يمنة ... ولا يسرة فعل الظلوم المخاتل
ولكن أخذت القصد جهدك كله ... وتقفو مثال الصالحين الأوائل

ثم تقدم الشاعر نصيب فاستأذنه فى الإنشاد فأبى عمر ، وذكّره بقصيدته الفاحشة ، لكن لم يمنعه العطاء ، وقال للشعراء :

ما عندى ما أعطيكم ، فانتظروا حتى يخرج عطائى ، فأواسيكم منه ،

فانتظروا حتى خرج العطاء ، فأمر لنصيب بمائة وخمسين درهمًا ، وللأحوص بثلاثمائة درهم ، وأمر لكُثَيِّر بمثلها .

قال كُثَيِّر :

فما رأيت أعظم بركة من الثلاثمائة التى أعطانى إياها ، ابتعت بها وصيفة فعلمتها الغناء ، فبعتها بألف دينار .

* * *

عمر بن عبد العزيز والخوارج

الخارجون على الدولة والحُكم كانوا قديمًا يسمون بالخوارج ، وللحكام وأصحاب السلطة للقضاء عليهم طريقان إما بالقضاء عليهم بالقوة والسلاح والحراب وهذا ما يميل إليه الكثير من الحكام .. كما فعل عبد الملك بن مروان وغيره إذ استعان عبد الملك على ذلك بالحجاج بن يوسف الثقفى حتى تخلص من عبد الله بن الزبير وأمثاله بالقوة فقضى عليهم ووحد الحكم تحت إمرة واحدة .

وإما بالحوار والمناقشة وإقامة الدليل حتى يدانوا ويتركوا ما هم عليه .

وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز يميل إلى الحوار والمناقشة ، وهذا ما فعله مع الخوارج الذين كانوا فى عهده .

لقد صرف هؤلاء الخوارج على اختلاف ضروبهم بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالدليل والحجة والبرهان الواضح حتى قضى على حججهم وأبطل أدلتهم ، وأخضعهم للحق ، وألزمهم طريق الجماعة .

أتى إلى عمر أناس من قرية الحرورية ، وكانوا مشهورين بالجدال والمناقشة ، فناقشوا عمر فى بعض الأمور ، وغالوا فيما ذهبوا إليه ، فأشار عليه بعض من كانوا يحضرون المناقشة إلى أن يأخذهم بالشدة ، ويخوفهم حتى يذعنوا له ، ولكن عمر رفض الشدة والعنف ورأى أن يأخذهم بالحسنى ، وما زال بهم رءوفًا رحيمًا حتى رضوا عن عمر وخلافته ، وأن يجعل لهم جعلًا يعيشون به.

حمد عمر ربه أن وفقه لإقناع هؤلاء ، وقال لمن حضر معه :
(إذا قدرت على دواء تشفى به صاحبك دون الكى ، فلا تكوينّه أبدًا) .

* * *

كتب أمير الموصل إلى عمر يسأله ماذا يفعل مع أناس من الخوارج من الحرورية ينتقلون بين البلاد، يدعون لمذهبهم وطريقتهم، ويفرقون جموع المسلمين .. هل يقاتلهم ويقضى عليهم ؟

فأجابه الخليفة عمر :

(إذا رأوا أن يسيحوا فى البلاد فى غير أذى لأهل الذمة، وفى غير أذى للأمة، فليذهبوا حيث شاءوا .. وإن نالوا أحدًا من المسلمين أو أهل الذمة بسوء، فحاكمهم إلى الله) .

* * *

ونذكر مناظرة دارت بين عمر وبعض الخارجين على الدولة، وكيف استطاع عمر أن يقنعهم بالحجة والبرهان، وكان قويًا فى دليله وحجته .

قال عمر لرجلين دار بينهما النقاش، وهما : عاصم واليشكرى :

أخبرانى .. ما الذى أخرجكم هذا؟ وما نقمتم علينا ؟

قال عاصم :

ما نقمنا سيرتك .. إنك لتتحرى العدل والإحسان! ولكن نود أن تخبرنا عن قيامك بهذا الأمر أعن رضاً من الناس ومشورة أم ابتززتم أمرهم؟

فقال عمر :

ما سألتهم الولاية عليهم، ولا غلبتهم عليها .. لقد عهد إلىّ سليمان بن عبد الملك، فتوليت ولم ينكر علىّ أحد، ولم يكرهه غيركم! وأنتم ترون رضا الناس من عدلى وإنصافى .

فقالا :

بيننا وبينك أمر . إن أنت أعطيته لنا، فنحن منك وأنت منا، وإن منعته، فلست منا، ولسنا منك .

فقال عمر :

ما هو ؟

قالا :

رأيناك خالفت أعمال أهل بيتك ، وسميتها مظالم ، وسلكت غير سبيلهم ، فإن زعمت أنك على هدى ، وهم على ضلال ، فالعنهم وتبرأ منهم ، فهذا هو الذى يجمع بيننا وبينك أو يفرق .

فقال عمر :

إنى قد علمت أنكم لم تخرجوا مخرجكم هذا لطلب الدنيا ومتاعها ، ولكنكم أردتم الآخرة ، فأخطأتم سبيلها .. إن الله عز وجل لم يبعث رسول الله ﷺ لعانًا .. وقال إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ (1) .

وقال الله عز وجل :

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ (2) .

وقد سميت أعمال أهل بيتى (ظلمًا وعدوانًا) وكفى بذلك ذمًا ونقصًا .

وليس لعن أهل الذنوب فريضة لا بد منها ، فإن قلتم إنها فريضة فأخبرنى متى لعن فرعون ؟! .

قال اليشكرى :

ما أذكر متى لعنته .

فقال عمر :

أفيسعك أن لا تلعن فرعون ، وهو أخبث الخلق وشرهم ، ولا يسعنى أن لا ألعن أهل بيتى ، وهم مصلون صائمون !؟

قال اليشكرى :

أما هم كفار بظلمهم ؟

قال عمر :

لا لأن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى الإيمان ، فكان من أقرّ به

---

(1) سورة إبراهيم الآية : ٣٦ .

(2) سورة الأنعام الآية : ٩٠ .

وبشرائعه قبل منه ، فإن أحدث حدثًا أقيم عليه الحد .

فقال اليشكرى :

إن رسول الله ﷺ دعا الناس إلى توحيد الله سبحانه وتعالى ، والإقرار بما نزل من عنده .

قال عمر :

فليس أحد منهم يقول لا أعمل بسنة رسول الله ﷺ ، لكن القوم أسرفوا على أنفسهم ، على علم منهم أنه محرم عليهم ، ولكن غلب عليهم الشقاء !

قال عاصم :

فابرأ ممن خالف عملك ، ورد أحكامهم .

قال عمر :

أخبرانى عن أبى بكر وعمر .. أليسا من أسلافكما ، وممن تتوليان وتشهدان لهما بالنجاة ؟

فهل علمتما أن أبا بكر حين قبض رسول الله ﷺ ، فارتدت العرب قاتلهم فسفك الدماء ، وأخذ الأموال ، وسبى الذرارى ؟

وهل علمتما أن عمر قام بعد أبى بكر فرد تلك السبايا إلى عشائرها بفدية ؟

فهل برئ عمر من أبى بكر ، أو تبرءون أنتم من أحد منهما ؟

قالا :

لا .

ثم قال لهما عمر :

ويحكم إنكم قوم جهال .. أردتم أمرًا فأخطأتموه .. فأنتم تردون على الناس ما قبل منهم رسول الله ﷺ .. ويأمن عندكم من خاف عنده ، ويخاف عندكم من أمن عنده !

قالا :

ما نحن كذلك .

قال عمر :

بل سوف تقرون بذلك الآن .. هل تعلمون أن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس وهم عبدة الأوثان ، فدعاهم إلى خلع الأوثان ، وشهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ؟ فمن فعل ذلك حقن دمه ، وأحرز ماله ، ووجبت حرمته ، وكانت له أسوة المسلمين ؟

قالا :

نعم .

قال :

أفلستما أنتما تلقيان من يخلع الأوثان ، ويشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله .. فتستحلون دمه وماله ! وتلقون من ترك ذلك ورفضه من اليهود والنصارى وسائر الأديان فيأمن عندكم ، وتحرسون دمه !؟ .

قال اليشكرى :

أرأيت رجلًا ولى قومًا وأموالهم ، فعدل فيها .. ثم صيرها بعده إلى رجل غير مأمون ، أتراه أدى الحق الذى يلزمه لله عز وجل ؟ أو تراه قد سلم من عذاب الله ؟

قال عمر :

لا .

قال :

أفتسلّم هذا الأمر من بعدك إلى يزيد بن عبد الملك ، وأنت تعلم أنه لا يقوم فيه بالحق ولا بالعدل ؟

قال عمر :

إنما ولاه غيرى (يقصد سليمان) .

قال :

أفترى من ولاه كان على حق ؟

قال عمر :

أهلكنى أمر يزيد ! وخصمتُ فيه ، فاستغفر الله !

لقد كان عمر قويًا فى حجته وبرهانه حتى إن أحد طرفى المناقشة وهو (عاصم) انضم إلى عمر وأقام عنده، فأمر عمر له بعطاء .. أما اليشكرى فقال: ما أحسن ما قلت، وسأعرضه على أصحابى .. وعلى كل فإن الخوارج الذى لم يغمدوا سيوفهم يومًا واحدًا منذ عهد معاوية .. قد ألقوا سلاحهم، وسكنوا فى أيام عمر ناسين كل ما لهم من ثارات عند الأمويين .. وأقسموا ألا يثيروا تمردًا ولا شغبًا ما دام عمر خليفة .. »[1] .

* * *

وقوم آخرون كانوا قد خرجوا على الدولة قبل أن يتولى عمر الخلافة فلم يأخذهم عمر بالقوة وبالسلاح والحروب، فأرسل إليهم عمر، وطلبهم للمناقشة وإظهار الحق فيما نطقوا به من القول فى القَدَرِ فهم ينكرون قدر الله، ويغالون فى إثبات القدرة للإنسان ويقولون بأنه لا يحتاج إلى معونة إلهية فى أعماله .

جاءه منهم من يسمى غيلان الدمشقى ومعه آخر، فلما دخلا على الخليفة عمر قال لهما :

ما الأمر الذى تنطقان به ؟

فقالا :

هو ما قال الله يا أمير المؤمنين .

قال :

وما قال الله ؟

قالا :

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾[2] .

---

(١) مختصر من الموسوعة لعمر أبو النصر : ١٢٠ .
(٢) سورة الإنسان الآية : ١ .

ثم قال أحدهما :

﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾[1] . ثم سكتا .

فقال عمر :

اقرأ ...

فقرأ حتى بلغ قوله تعالى :

﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[2] .

فقال عمر :

كيف تريان ؟ تأخذان الفروع ، وتدعان الأصول .

وظل معهما يجادلهما بالحجة والمنطق ولم يأخذهما بالقوة والسيف ووجد أن فى هذا حقن للدماء وكان هذا رأيه ومذهبه ، وترك أمرهم لله .

وقيل :

إن غيلان هذا تاب على يد عمر ثم قال :

يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالًا فهديتنى ، وأعمى فبصرتنى ، وجاهلا فعلمتنى .. والله لا أتكلم فى هذا الأمر أبدًا .

* * *

(١) سورة الإنسان الآية : ٣ .

(٢) سورة الإنسان الآيات : ٢٩ - ٣١ .

كلمات عمرية

هذه الكلمات تصدر عن نفس مؤمنة تقية ، عن الفيض الإلهى الذى تعلمه عمر بن عبد العزيز والذى تربى فيه ، وتمسك بحبله المتين ، ولا نستطيع إلا أن نقول إن هذا توفيق من الله سبحانه وتعالى ، والتوفيق أمر عظيم لا يهبه الله إلا لرجل عظيم ، وحقًا لقد كان عمر عظيمًا ؛ لأنه عاش فى رحاب الله ، وكل من عاش فى رحاب الله فإنه عظيم .

قال عمر بن عبد العزيز فأوجز وأفاد وأغنى :

ــ تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم ، وتواضعوا لمن تعلّمون ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، ولا تكونوا جبابرة بالعلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم .

ــ إن الله لا يطالب بما قضى وقدر ، وإنما يطالب بما نهى وأمر .

ــ إن استطعت فكن عالمًا ، فإن لم تستطع فكن متعلمًا ، فإن لم تستطع فأحبهم (يعنى العلماء) فإن لم تستطع فلا تبغضهم .

ــ إنكم لم تخلقوا عبثًا ، ولم تتركوا سدى ، وإن لكم معادًا ينزل الله فيه ليحكم بين الناس ، ويفصل بينهم .. فخاب وخسر من خرج من رحمة الله ، وحرم جنة عرضها السماوات والأرض .

ــ يا بنى إذا سمعت كلمة من أمرئ مسلم ، فلا تحملها على شىء من الشر ما وجدت لها محملًا من الخير .

ــ فلتجف يداك من دماء المسلمين ، وبطنك من أموالهم ، ولسانك من أعراضهم .. فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل .

ــ اللهم إنك ذكرت هذا المال فقلت سبحانك :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [1] .

(١) سورة آل عمران الآية : ١٤ .

وقلت سبحانك :

﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ (١).

اللهم إننا لا نستطيع إلى أن نفرح بما زينت لنا ، اللهم إنى أسألك أن نضعه فى حقه ، وأعوذ بك من شره .

ــ إنا والله ما وجدنا إلى هذا المال سبيلاً إلا أن يؤخذ من حق ، فيوضع فى حق ، ولا يمنع عن حق .

ــ من تزين للناس بما يعلم الله خلافه شانه الله .

ــ ليس الإيمان بالتمنى ، ولكن بالحقائق .. وإنما المهاجرون هم الذين يهجرون السيئات ومن يأتى بها .

ــ إن أحب الناس إلىّ من أهدى لى عيوبى .

ــ العلم خير من المال ، والعلم يحرسك ، وأنت تحرس المال ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو (ينمو) على الإنفاق .

ــ لا تنافسوا فى عز الدنيا وفخرها ، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها ، ولا تجزعوا من ضرها وبؤسها ، فإن عزها وفخرها إلى انقطاع ، وإن زينتها ونعيمها إلى ارتجاع ، وإن ضرها وبؤسها إلى نفاذ ، وكل مدة فيها إلى منتهى ، وكل حى فيها إلى فناء .

ــ إن الحاكم يحكم بحكم الله ، ولا خشية ولا وحشة عليه من ذلك .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٢) .

ــ الرزق رزقان : طالب ومطلوب ، فمن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها ، ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى رزقه منها .

ــ إذا وافق الحق الهوى فهو ألذ من الشهد .

ــ فلتجف يداك من دماء المسلمين ، وبطنك من أموالهم ، ولسانك

---

(١) سورة الحديد الآية : ٢٣ .

(٢) سورة البقرة الآية : ٦٢ .

من أعراضهم .. فإذا فعلت ذلك فليس عليك سبيل .

﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

ــ إياك وما يعتذر منه ، ولا تقبل المعروف ممن لا يصنعه إلى أهل بيته .

ــ حسد الصديق من سقم المودة .

ــ إن الله سبحانه فرض فى أموال الأغنياء أقوات الفقراء ، فما جاع فقير إلا بما مُتِّع به غنى ، والله تعالى سائلهم عن ذلك .

ــ إن لله عبادًا يختصهم بالنعم لمنافع العباد فيقرها فى أيديهم ما بذلوه فإذا منعوها نزعها منهم ، ثم حولها إلى غيرهم .

ــ من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خسر ، ومن خاف (الله) أمن ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم .

ــ الإيمان معرفة بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان .

ــ عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذى هرب منه ، ويفوته الغنى الذى إياه طلب ؛ فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ، ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء !

وعجبت للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة ، ويكون غدًا جيفة !

وعجبت لمن شك فى الله ، وهو يرى خلق الله !

وعجبت لمن نسى الموت وهو يَرى الموتى !

وعجت لمن أنكر النشأة الأخرى وهو يرى النشأة الأولى !

وعجبت لعامر دار الفناء وتارك دار البقاء !

ــ لا تستح من إعطاء القليل ، فإن الحرمان أقل منه .

ــ من نصب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره ، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم .

* * *

١ - زوجات عمر

٢ - أولاد عمر والمنهج الذى أخذهم به

٣ - منهج عمر التربوى فى التعليم

زوجات عمر

تزوج عمر بن عبد العزيز أكثر من زوجة ، فقد تاقت نفسه إلى النساء فتزوج لميس بنت على بن الحارث ، وكان له منها : عبد لله وبكر وأم عمّار .

وتزوج أم عثمان بنت شعيب ، وكان له منها : إبراهيم .

وتزوج أم هشام بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب ، وكانت زوجة لعبد الرحمن بن سهل بن عمرو ، فلما مات عبد الرحمن تزوجت عمر ، كما يروى أبو الفرج فى الأغانى .

وكانت له أم ولد رزق منها بعبد الملك والوليد وعاصم ، ويزيد وعبد الله وعبد العزيز وزيان وأمينة ، وأم عبد الله .

* * *

وتعتبر زوجته فاطمة بنت عمه عبد الملك بن مروان فوق الزوجات ، وهى التى كانت لها المنزلة فى حياة عمر حتى أنه لم يظهر على صفحة التاريخ غيرها ، فهى زوجة الخليفة وبنت الخليفة وحفيدة الخليفة مروان بن الحكم ، وأخت الخليفة الوليد ، والخليفة سليمان فلا عجب أن يقول الشاعر فيها هذا البيت :

بنت الخليفة والخليفة جدها   أخت الخلائف والخليفة زوجها

وكان لها جمال فائق ودل فى صغرها ، وقد أُغرم بها أمراء بنى أمية ، ويعتبر فوز عمر بها من حسن حظه حيث فضل أبوها الخليفة عبدُ الملك عمرَ على جميع أقرانه وقال كلمته الخالدة :

(أريد أن أزوجها لرجل عنده دين إن أحبها أكرمها وإن أبغضها لم يهنها) .

ولما ضم الخليفة عمر إليه ولاه (خناصرة) [1] سنتين عاشت فيهما معه فاطمة أسعد أيامها ، وكان لعمر بها قصر على عادة ملوك بنى أمية فى إيثارهم سكنى البادية على الحاضرة ، ثم انتقلت مع عمر إلى المدينة ، ورجعت معه إلى دمشق ، فلما تولى الخلافة عمر انتقلت معه من حياة الغنى والبذخ إلى حياة التقشف الزائد ، ولم تتخل عنه يومًا ، وتحملت معه الكثير ، ولها فى ذلك قصص مثير .

حكى أن امرأة من أهل الكوفة جاءت إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز فقالت : يا أمير المؤمنين ما أصبت أنا ولا بناتى مما قسّم أمير المؤمنين قليلًا ولا كثيرًا .

قال :

ومن بك ؟

قالت :

العرفاء والمناكب !

قال :

ارجعى إلىّ حين العشية فأكتب لك ، ثم قال : تهْ فلعلى لا أبلغ العشاء ، ادخلى عند فاطمة بنت عبد الملك يعنى زوجته .

فبينما هى عند فاطمة إذ قام عمر فسكب وضوءًا لنفسه ، فقالت المرأة لفاطمة بنت عبد الملك :

ألا تأخذين عليك ثيابك من هذا الرجل يرى رأسك مكشوفًا .

قالت :

أما تعرفين هذا ؟ هذا أمير المؤمنين يسكب لنفسه وضوءًا .

قالت المرأة : ثم دعانى وكتب لى كتابًا .

ومر عمر بن عبد العزيز ذات يوم بفاطمة زوجته فضرب على كتفها وقال لها :

(١) بلدة من أعمال حلب .

(يا فاطمة ! لنحن فى ليالى دابق أنعم منا اليوم !) يريد أن يذكر زوجته ليالى العز والنعيم قبل أن يتولى الخلافة .

فقالت له :

والله ما كنت على ذلك أقدر منك اليوم .

فأدبر عنها وله حنين وهو يقول :

يا فاطمة إنى أخاف النار يا فاطمة : ﴿ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ [1] .

* * *

ودخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عبد العزيز فى مرضه وعليه قميص فقال لفاطمة زوجته وهى أخت مسلمة بن عبد الملك :

ألا تغسلون قميصه ؟

قالت :

والله ما له غيره ، وإن غسلناه بقى بلا قميص له .

* * *

كان عمر يرى أن الحلى والجواهر الكثيرة الغالية الثمن التى أعطاها الخليفة عبد الملك لابنته فاطمة زوجة عمر ليست إلا من مال الرعية وينبغى ردها .

قال لها يومًا :

قد علمت حال هذه الجواهر ، وما صنع فيها أبوك ، ومن أين أصابها .. فهل لك أن أجعلها فى تابوت ، ثم أطبع عليه ، وأجعله فى أقصى بيت المال ، وأنفق ما دونها ، فإن خلصت إليه أنفقتها ، وإن مت قبل ذلك فلعمرى ليردّنها إليك غيرى؟

---

(١) سورة يونس الآية : ١٥ .

قالت له :

افعل ما شئت .

فوضع الحلى والجواهر فى بيت المال ، ثم مات رضى الله عنه ، ولم يصل إليها .

فلما تولى أخوها يزيد بعد عمر أراد أن يرد كل شىء إليها ، فامتنعت من أخذه وقالت :

ما كنت لأتركه ثم آخذه .

* * *

وقدمت امرأة من العراق على عمر بن عبد العزيز فلما صارت إلى بابه ، قالت :

هل على أمير المؤمنين حاجب ؟

فقالوا :

لا ، فَلِجِى إن أحببت ، فدخلت المرأة على فاطمة وهى جالسة فى بيتها وفى يدها قطن تعالجه ، فسلمت فردت عليها السلام ، وقالت لها : ادخلى ، فلما جلست المرأة رفعت بصرها فلم تر فى البيت شيئًا له بال .

فقالت :

إنما جئت لأعمر بيتى من هذا البيت الخرب !

فقالت لها فاطمة :

إنما خرب هذا البيت عمارة بيوت أمثالك ، فأقبل عمر حتى دخل الدار ، فمال إلى بئر فى ناحية الدار فانتزع منها دلاء صبها على طين كان بحضرة البيت — وهو يكثر النظر إلى فاطمة — ، فقالت لها المرأة :

استترى من هذا « الطيان » ؛ فإنى أراه يديم النظر إليك .

فقالت :

ليس هو بطيان ، هو أمير المؤمنين .

ثم أقبل عمر ، فسلم ، ودخل بيته فمال إلى مصلى كان له فى البيت يصلى فيه ، فسأل فاطمة عن المرأة فقالت :

هى هذه ، فأخذ مكتلاً له فيه شىء من عنب ، فجعل يتخير لها خيره يناولها إياه ، ثم أقبل عليها فقال :

ما حاجتك ؟

فقالت :

امرأة من أهل العراق لى خمس بنات كُسُلٌ كُسُد ، فجئتك ابتغى حسن نظرك لهن ، فجعل يقول :

كسل كسد ، ويبكى ، فأخذ الدواة والقرطاس ، وكتب إلى والى العراق ، فقال سم كبراهن .

فسمتها ، ففرض لها .

فقالت المرأة :

الحمد لله .

ثم سأل عن الثانية والثالثة والرابعة والمرأة تحمد الله ففرض لها ، فلما فرض للأربعة تهللت أساريرها من الفرح فدعت له بخير الجزاء ، فرفع يده ، وقال : قد كنا نفرض لهن حين تولين الحمد أهله ، فمرى هؤلاء الأربعة يُفِضْن على هذه الخامسة .

فخرجت بالكتاب حتى أتت به العراق ، فدفعته إلى والى العراق ، فلما ذهبت إليه بالكتاب بكى واشتد بكاؤه وقال :

رحم الله صاحب هذا الكتاب فقالت :

أمات ؟

قال :

نعم .

فصاحت ، وولولت فقال :

لا بأس عليك .. ما كنت لأرد كتابه فى شىء ، فقضى حاجتها ، وفرض لبناتها .

ظلت فاطمة وَفِيَّةً لزوجها بعد موته ، ويروى أن أخاها مسلمة وأخاها هشام دخلا عليها وهي فى حزنها فقالا لها :

ما هذا الأمر الذى قدمت عليه ؟ أجزعك على بعلك ؟ فأحق مَنْ جزع على مثله ، أم على شيء فاتك من الدنيا فها نحن بين يديك وأموالنا وأهلونا ؟

فقالت :

ما من كل جزعت ؟ ولا على واحدة أسفت .. ولكنى — والله — رأيت منه ليلة منظرًا ، فعلمت أن الذى أخرجه إلى ذلك الذى رأيت منه ؟

قالت :

رأيته ذات ليلة قائمًا يصلى فأتى على هذه الآية :

﴿ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴾ [1] .

فصاح : واسوء صباحاه !

ثم وثب فسقط ، فجعل يخور حتى ظننت أن نفسه ستخرج ، ثم إنه هدأ فظننت أنه قد قضى ، ثم أفاق إفاقته فنادى :

واسوء صباحاه ! .. ثم وثب فجعل يجول فى الدار ويقول :

ويلى من يوم يكون الناس فيه كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش !!

قالت :

فلم يزل كذلك حتى طلع الفجر ، ثم سقط كأنه ميت حتى أتاه الأذان للصلاة .. فوالله ما ذكرت ليلته تلك إلا غلبتنى عيناى ، فلم أملك رد عبرتى !

لقد كانت معه وفية حتى آخر نفس من حياته .

* * *

---

(١) سورة القارعة الآية : ٤ ، ٥ .

أولاد عمر والمنهج الذى أخذهم به

كان لعمر بن عبد العزيز من البنات :

أمينة ، وأم عمار ، وأم عبد الله ، وقد حرص على أن يربيهن تربية دينية ، ويرعاهن دائمًا بالنصيحة وبطاعة الله والعمل على مرضاته ، والرضا بما قسم لهن وأن يراقب تصرفاتهن ، وأن يوكل أمرهم إلى مربية اختارها لهن ، لقد شاركنه الحياة قبل توليه الإمارة والخلافة ، فعشن فى رغد من العيش فمرت تلك الفترة وهن فى راحة ، فلم يكن عندهن فى ذلك الوقت أمور تستحق أن تسجل عليهن .

لكن حينما تولى الخلافة كان لزامًا عليهن أن يقاسمن أباهن حياة الزهد والتعفف والتقشف ، وكن سعداء مع الوالد الخائف من الله ، والمتقرب إليه ، والذى يحاول إرضاءه ، وهذه الطريق التى ارتآها هى الموصلة إلى سعادة الآخرة وإلى النجاة والفوز فما عند الله خير وأبقى .

* * *

كان عمر يصلى العتمة كل ليلة ، ثم يدخل على بناته ، فيسلم عليهن . دخل عليهن ذات ليلة فلما أحسسنه ، وضعن أيديهن على أفواههن ، ثم تبادرن الباب .

قال عمر للحاضنة :

ما شأنهن ؟

قالت :

إنه لم يكن عندهن شيء يتعيشينه إلا عدس وبصل ، فكرهن أن تشم ذلك من أفواههن .

فبكى عمر ، ثم قال لهن :

يا بناتى ما ينفعكن أن تعشن الألوان ، ويمر بأبيكن إلى النار ، فبكين حتى علت أصواتهن ، ثم انصرف .

مرت أمينة ابنة الخليفة عمر بن عبد العزيز يومًا عليه وهو جالس ، فدعاها الخليفة :

يا أمينَ ، يا أمينَ .

فلم تجبه ، فأمر إنسانًا فجاء بها . فقال لها :

ما منعك أن تجيبى !

قالت :

إن ملابسى ليست حسنة !

فقال :

يا مزاحم . انظر إلى تلك الفرش التى فتقناها ، فاقطع منها قميصًا !

فذهب إنسان إلى أم البنين عمتها فقال :

ابنة أخيك ليس عندها من الملابس ما تستحسنه ، وأنت عندك ما عندك .

فأرسلت إليها بتخت من ثياب وقالت :

لا تطلبى من عمر شيئًا .

* * *

يروى ابن عبد الحكم فى سيرة عمر : أن ابنته أرسلت إليه بلؤلؤة وقالت له :

يا أبت إن رأيت أن تبعث لى بأخت لها حتى أجعلها فى أذنى .

فأرسل لها بجمرتين ، ثم قال لها :

إن استطعت أن تجعلى هاتين الجمرتين فى أذنيك بعثت لك بأخت لها .

وكان له من البنين :

عبد الله ، وأبو بكر ، وإبراهيم ، وإسحاق ، ويعقوب ، وموسى ، والوليد ، وعاصم ، ويزيد ، وعبد العزيز ، وعبد الملك ولم يأل جهدًا فى تربيتهم ونصحهم ، وتدريبهم ، وتوجيههم إلى ما ينفعهم فى دنياهم وآخرتهم .

حكى عن ابنه عبد العزيز وكان يلى المدينة ومكة ــ بعد موت أبيه ــ ليزيد بن عبد الملك ، وثبته فيه مروان بن محمد قال :

إن أباه كان دائم الوصية له ولإخوته ، ومما كان يقول له :

(يا بنى إذا سمعت كلمة من أمرئ مسلم فلا تحملها على شيء من الشر ما وجدت لها محملاً على الخير) .

* * *

ومما روى أن ابنه عبد الله ذهب إليه وقال له :

اكسنى يا أبت !

فقال له :

اذهب إلى الخيار بن رباح البصرى ؛ فإن لى عنده ثيابًا فخذ منها ما بدا لك .

قال عبد الله :

فذهبت إلى الخيار بن رباح فقلت له :

استكسيت أبى فأرسلنى إليك وقال :

إن لى عند الخيار بن رباح ثيابًا .

قال :

صدق أمير المؤمنين ، فأخرج إليه ثيابًا رخيصة ، رأى عبد الله ابن الخليفة أنها لا تناسبه ، فسأل الخيار :

هل عندك غيرها له ؟

قال :

ما عندى غيرها لأمير المؤمنين ، فخذ منها ما بدا لك .

لم يأخذ عبد الله منها شيئًا ، ورجع إلى أبيه عمر ، فقال :

يا أبتاه !! استكسيتك ، فأرسلتنى إلى الخيار بن رباح ، فأخرج لى ثيابًا ليست من ثيابى ، ولا من ثياب قومى !

فقال عمر :

فذاك ما لنا عند الرجل .

فانصرف عبد الله حتى إذا كاد يخرج ناداه فقال له :
هل لك أن أسلفك من عطائك مائة درهم ؟
قال :
نعم يا أبتاه .
فأسلفه مائة درهم ، فلما خرج عطاؤه ، حوسب بها ، فأخذت منه .

* * *

وقال مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، وابن عم عمر بن عبد العزيز يذكر عطاء عمر لأولاده :
رحم الله عمر ، والله هلك وما بلغ ابن له قط شرف العطاء .

* * *

كان عمر يكره أن يلىَ أحد أولاده ولاية أو منصبًا مكتفيًا بنفسه حيث سيحاسبه الله على كل صغيرة وكبيرة متأسيًا بجده الخليفة الثانى عمر بن الخطاب حيث خوطب فى تولية ابنه عبد الله بن عمر فأبى وقال : أعمر وابنه !؟

* * *

روى أن عمر بن عبد العزيز قال لبنيه :
(أتحبون أن أولّى رجل منكم جندا ، فينطلق تصلصل به جلاجل البريد ؟)
فقال ابنه ابن الحارثية [1] :
لم تعرض علينا شيئًا صانعه بنا ؟
فقال عمر :
(إنى لأعلم أن بساطى هذا يصير إلى البلى ، وإنى لأكره أن

(١) من زوجات عمر لميس بنت على الحارث ، وأنجب منها عبد الله ،وبكر ، وأم عمارة .

تدنسوه بخفافكم ، فكيف أقلدكم دينى تدنسوه فى كل جند !!) .

* * *

وروى أن بعض أولاد عمر اتخذ خاتمًا ، واشترى له فصًا بألف درهم فكتب إليه عمر :

أما بعد فقد بلغنى أنك اشتريت فصًا بألف درهم ، فبعه وأشبع به ألف جائع ، واتخذ خاتمًا من حديد صينى وأكتب عليه :
(رحم الله امرءًا عرف قدر نفسه) .

* * *

طلب ابن لعمر بن عبد العزيز أن يزوجه ، وأن يُصْدِق عنه من بيت المال ــ وكان لابنه ذلك امرأة ــ فغضب لذلك عمر وكتب إليه :
لعمر الله لقد أتانى كتابك تسألنى أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين ، وأبناء المهاجرين لا يجد أحدهم امرأة يستعف بها ، فلا أعرفن ما كتبت بمثل هذا ..
ثم كتب إليه أن انظر إلى ما قِبَلَك من نحاسنا ومتاعنا فبعه واستعن بثمنه على ما بدا لك .

* * *

منهج (عمر) التربوي في التعليم

رغم أعباء الخلافة ، وانشغال الخليفة بأمور الناس ، وكثرة المشاكل ومحاربته للقضاء على مفاسد عهود الظلم البائدة ، وحزمه فى الرد على الأقارب الذين يريدون المزيد والزيادة من غير وجه حق ، لم يصرفه كل هذا عن وضع منهج قويم لتربية أولاده بنين وبنات ، ولا تقتصر أسسه على أولاده ، وإنما تتعداهم إلى أبناء الأمة الإسلامية ، وهو منهج كتبه بعد تجارب طويلة لمسها بنفسه ، وقررها بعد ممارسات عديدة فيها الجدية ، والبعد عن كل ما هو لهو ولعب ، ولعله قد وضع أمام عينيه قول الله سبحانه وتعالى : ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (1) .

فحياة العلم الصحيحة إنما تكون بالبعد عما يشغل من أنواع اللهو وضروبه ، وهذا ما سوف نلمسه من رسالته التى دفع بها إلى مولاه ومؤدب أولاده .

فحينما وَكَلَ إلى سهل مولاه وخادمه تعليم الأولاد وتربيتهم كتب إليه رسالته هذه لتكون أمامه نبراسًا وهداية يقول فيها :

(.. أما بعد فإنى اخترتك على علم منى بك لتأديب ولدى ، فصرفتهم إليك عن غيرك من مواليّ وذوى الخاصة بى ، فحدثهم بالجفاء ؛ فهو أمعن لإقدامهم ، وترك الصحبة ، فإن عادتها تكسب الغفلة ، وقلة الضحك ؛ فإن كثرته تميت القلب .

وليكن أول ما يعتقدون من أدبك بُغْضُ الملاهى التى بدؤها من الشيطان ، وعاقبتها سخط الرحمن ؛ فإنه بلغنى من الثقات من أهل العلم أن حضور المعازف ، واستماع الأغانى واللهو بها ينبت النفاق فى القلب ، كما ينبت العشب الماء .

---

(1) سورة مريم الآية : ١٢ .

ولعمرى لتوقى ذلك يكون بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذى الذهن من الثبوت على النفاق فى قلبه، وهو حين يفارقها لا يعتقد مما سمعت أذناه على شىء مما ينتفع به.

وليفتح كل غلام منهم بجزء من القرآن الكريم يثبت فى قراءته، فإذا أفرغ تناول قوسه ونبله، وخرج إلى الغرض حافيًا، فرمى سبعة أرشاق، ثم انصرف إلى القائلة؛ فإن ابن مسعود رضى الله عنه كان يقول:

«يا بنى قيلوا فإن الشياطين لا تقيل»[1]).

* * *

هذه رسالة خالدة وجهها الخليفة عمر بن عبد العزيز، لمولاه سهل وهو من خدامه المخلصين الملازمين له، ليطلع على أحواله، ويلامس أفعاله، وفيها يشير إلى أن المعلم المربى يجب أن يكون على دين وخلق وعلم حتى يتمكن من أن يصل بعلمه وتأثيره إلى قلوب من يعلمهم ويربيهم، ويكون فيه القدوة والريادة.

بيّن الخليفة ما يجب أن يكون عليه المربى والمؤدب، فيلتزم بالجد فى معاملة تلاميذه والدارسين عليه فيبتعد بهم عن طريق اللهو، وأن يكون مراعيًا الفرق بينه وبينهم، فلا يتخذ منهم أصحابًا فيزيل الفروق والكلفة، فيمزح معهم، ويداعبهم؛ لأن ذلك أدعى إلى الاستهانة بما يطلبه منهم، فيكونون على شىء من التراخى والكسل.

* * *

والخليفة يبغض الملاهى وهى حضور المعازف والاستماع إلى الأغانى الخليعة، وترديد كلماتها؛ فلها تأثير كبير على حياة الشباب، والانحراف

---

(١) قيلوا: من القيلولة، وهى وقت حر الظهيرة.

بهم إلى طريق الغواية والهلاك ؛ لأنِ الانشغال بها قد يضيع على الشباب كل ما يفيد وينفع .

ويوصى عمر رضى الله عنه بأن يحرص كل غلام على قراءة جزء من القرآن الكريم كل يوم وأن يتدبر معانيه حتى يؤثر ذلك فى نطقه وتقويم لسانه وهدايته إلى الطريق المستقيم .

والذى نلاحظه أن من يقرأ آيات وسورًا من القرآن يستقيم لسانه ويحسن نطقه وبيانه ، وينطبع فى قلبه حب الجد من الأعمال ، وتنشغل داخليته بما هو مفيد ونافع .

ثم يختتم أمير المؤمنين رسالته بتوجيه الشباب إلى رياضة الأجسام حتى تكتمل قواهم ، وينضج تفكيرهم ــ والعقل السليم فى الجسم السليم ــ وحتى يعد شباب المسلمين وفتيانهم لما يطلب منهم تجاه الدفاع عن الدين ضد المعتدين بالجهاد والاستعداد لرد العدوان على أراضى المسلمين وذلك بالتمرين المفيد على استعمال أدوات الحرب والرمى ، فإذا دعا الداعى فزع الجميع إلى القتال والمغالبة والانتصار على الباطل .

* * *



عمر وابنه عبد الملك

عمــر وابنه عبد الملك

ومن أنجب أولاده وأزهدهم، وأقربهم من الله عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، وأمه ليست فاطمة بنت الخليفة عبد الملك بن مروان زوجة عمر، وإنما أُمّه أم ولد، فقد أنجب منها عمرُ عبدَ الملك هذا، والوليد، وعاصمًا، ويزيد، وعبد العزيز، وزيان، وأمينة، وأم عبد الله.

كان أزكى أولاده عقلًا، وأحَدَّهم تفكيرًا و وأقواهم إيمانًا، وأشدهم - على الرغم من صغر سنة - خوفًا من الله، وأصبرهم على البلاء.

كان عبد الملك منذ طفولته أكثر إخوته التصاقًا بأبيه .. ملازمًا له .. معاونًا له فى الشدائد .. ناصحًا له فى العمل .. داعيًا له، مخوفًا لأبيه من لقاء الله حتى لقد روى عن بعض مشيخة أهل الشام قال:

(كنا نرى أن عمر بن عبد العزيز إنما أدخله فى العبادة ما رآه من ابنه عبد الملك).

* * *

كتب عمر إلى عبد الملك ابنه فقال:

(إنه ليس من أحد رشده وصلاحه أحب إلىّ من رشدك وصلاحك، إلا أن يكون والى عصابة من المسلمين، أو من أهل العهد يكون لهم فى صلاحه، ما لم يكن لهم فى غيره، أو يكون عليهم من فساده، ما لم يكن لهم من غيره).

* * *

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى ابنه عبد الملك وهو صغير، وقد ظهرت عليه مخايل النجابة والفهم الواعى، وقد خصه والده بالعناية والاهتمام قال فى رسالته إليه:

أما بعد :

فإن أحق من تعاهدت بالوصية والنصيحة بعد نفسى أنت ، وإن أحق من وعى ذلك ، وحفظه عنى أنت .

إن الله له الحمد قد أحسن إلينا إحسانًا كبيرًا بالغًا فى لطيف أمرنا وعامته ، وعلى الله إتمام ما غبر من النعمة ، وإياه نسأل العون على شكرها .

فاذكر فضل الله عليك وعلى أبيك ، ثم أعِنْ أباك على ما قوى عليه وعلى ما ظننت أن عنده فيه عجزًا عن العمل فيما أنعم به عليه ، وعليك فى ذلك ، فراغ نفسك وشبابك وصحتك ، وإن استطعت أن تكثر تحريك لسانك بذكر الله تحميدًا وتسبيحًا وتهليلًا فافعل ؛ فإن أحسن ما وصلت به حديثًا حسنًا حمد الله وشكره ، وإن أحسن ما قطعت به حديثًا سيئاً حمد الله وذكره ، فلا تفتتن فيما أنعم الله به عليك فيما عسيت أن تقرظ به أباك فيما ليس فيه .

إن أباك كان بين ظهرى إخوته يَفْضُل عليه الكبير ، ويدنى دونه الصغير ، وإن كان الله ـــ وله الحمد ـــ رزقنى من والدى حسباً جميلًا ، كنت به راضيًا ، أرى أفضل ببره ولده علىّ حقًا حتى ولدت وولدت طائفة من إخوتك ، ولا أخرج بكم من المنزل الذى أنا فيه .

فمن كان راغبًا فى الجنة ، وهاربًا من النار ، فالآن التوبة مقبولة ، والذنب مغفور قبل نفاذ الأجل ، وانقطاع العمل ، وفراغ من الله للمنقلبين ؛ ليدنيهم بأعمالهم فى موضع لا تقبل فيه الفدية ، ولا ينفع فيه المعذرة ، تبرز فيه الخفيات ، وتبطل فيه الشفاعات ، بَرِدُه الناس بأعمالهم ، ويصدرون عنه أشتاتًا إلى منازلهم .

فطوبى يومئذ لمن أطاع الله ، وويل لمن عصى الله ؛ فإن ابتلاك الله بغنىً فاقتصد فى غناك ، وضع لله نفسك ، وأدّ إلى الله فرائض حقه من مالك ، وقل كما قال العبد الصالح :

﴿ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ

﴿ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ﴾ [1] .

وإياك أن تفخر بقولك ، وأن تعجب بنفسك ، أو يخيل إليك أن ما رزقته لكرامة لك على ربك ، وفضيلة على من لم يرزق مثل غناك ، فإذا أنت أخطأت باب الشكر ، وتركت منازل الفقر ، وكنت ممن طغى للغنى ، وتعجل طيباته فى الحياة الدنيا ، فإنّي لأعظك بهذا وإنى لكثير الإسراف على نفسى غير محكم لكثير من أمرى ، ولو أن المرء لم يعظ أخاه حتى يحكم أمر نفسه ، ويعمل فى الذى خلق له من عبادة ربه إذن لتواكل الناس الخير ، وإذن لرفع الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وقل الواعظون والساعون لله بالنصيحة فى الأرض .

﴿ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَلَهُ ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ [2] .

* * *

هذا الابن البار ، والذى أخذه والده بالنصيحة لم يمض عليه زمن يسير حتى أصبح الأب الخليفة ينتظر منه توجيهًا له نصيحة يقدمها بين يديه ، ورأيًا صائبًا يعرضه عليه ، وأمرًا يخوف أباه منه ، ودرجة عند الله يغرى بها الابن والده .. أصبح عمر ينتظر كل يوم جديدًا من عبد الملك ينقذه به من غفلة ، ومن سهو حتى لقد قال سيار بن الحكم :

(كان ابنٌ لعمر بن عبد العزيز يقال له عبد الملك ، وكان – رحمه الله تعالى – يفضل على عمر رضى الله عنهما) .

قال عبد الملك :

(يا أبت أقم الحق ولو ساعة من نهار) .

وروى أن عبد الملك دخل على عمر فقال :

---

(١) سورة النمل الآية : ٤٠ .

(٢) سورة الجاثية الآية : ٣٦ ، ٣٧ .

يا أمير المؤمنين إن بى حاجة فأخلنى – وكان عنده مسلمة بن عبد الملك – فقال له عمر :

أَسِرٌّ دون عمك ؟

قال :

نعـم !

وخرج مسلمة ، وجلس عبد الملك بن يديه ، فقال :

يا أمير المؤمنين ! ما أنت قائل غدًا لربك إذا سألك ، فقال رأيت بدعة فلم تمتها ، أو سنة فلم تحيها ؟

فقال عمر :

يا بنى أشىء حمَّـلك الرعية إلىّ ، أم رأى رأيته ؟

قال :

بل رأى رأيته من قبل نفسى ، وعرفت أنك مسئول ، فما أنت قائل ؟

قال أبوه :

رحمك الله ، وجزاك من ولدٍ خيرًا ؛ فإنى لأرجو أن تكون من الأعوان على الخير !

يا بنى إن قومك قد شدوا هذا الأمر عقدة عقدة ، وعروة عروة ، ومتى ما أريد مكايدتهم على انتزاع ما فى أيديهم ، لم آمن أن يفتقوا علىّ فتقًا تكثر فيه الدماء ، والله لزوال الدنيا أهون علىّ من أن يهراق فى سببى محجمة من دم .

أو ما ترى أن لا يأتى على أبيك يوم من أيام الدنيا إلا وهو يميت فيه بدعة ، ويحيى فيه سنة حتى يحكم الله بيننا وبين قومنا بالحق وهو خير الفاتحين !

* * *

وجلس عمر بن عبد العزيز يومًا للناس ، فلما انتصف النهار ضجر ومل وكَلّ . فقال للناس :

مكانكم حتى انصرف إليكم ، ودخل ليستريح ساعة ، فجاء ابنه عبد الملك ، فسأل عنه ، فقالوا :

دخل !

قال :

يا أمير المؤمنين ! ما أدخلك ؟

قال :

أردت أن أستريح ساعة .

قال عبد الملك رحمه الله .

أو أمنت الموت أن يأتيك ، ورعيتك على بابك ينتظرونك ، وأنت تحتجب عنهم ؟

فقام عمر من ساعته ، وخرج إلى الناس .

وقال عبد الملك مرة :

يا أمير المؤمنين ! ما يمنعك أن تمضي الذى تريده ، فوالذى نفسى بيده ما أبالى أن لو غلت بى وبك القدور !!

قال عمر :

وحقٌّ ، هذا منك !!

قال عبد الملك :

نعم ، والله .

قال عمر :

الحمد لله الذى جعل من ذريتى من يعيننى على أمر دينى . يا بنى : إنى لو باهت الناس بالذى تقول ، لم آمن أن ينكروها ، فإذا أنكروها لم أجد بدًا من السيف ، ولا خير فى خير لا يجىء إلا بالسيف .

يا بنى : إنى أروض الناس رياضة صعبة ، فإن بطأ بى أرجو أن ينفذ الله مشيئتى ، وإن تعدد على منيتى فقد علم الله الذى أريده .

* * *

ودخل عبد الملك على أبيه الخليفة عمر بن عبد العزيز فقال :

يا أمير المؤمنين ! ماذا تقول لربِّك إذا أتيت ، وقد تركت حقًا لم تحيه ، وباطلًا لم تمته ؟

قال :

اقعد يا بنى .

إن أباءك وأجدادك خدعوا الناس ، فانتهت الأمور إلىّ ، وقد أقبل شرها ، وأدبر خيرها ، لكن ليس حسنًا جميلًا أن لا تطلع الشمس علىّ فى يوم لا أحييت فيه حقًا ، وأمت فيه باطلًا ، حتى يأتينىَ الموتُ وأنا على ذلك .

* * *

وغضب عمر يومًا ، واشتد غضبه ، فلما سكت عنه الغضب ، قال له عبد الملك :

يا أمير المؤمنين فى قدر نعمة الله عندك ، ووضعك الذى وضعكم الله به ، وما ولاك من أمر عباده أن يبلغ بك الغضب ما أرى !

قال عمر :

كيف قلت ؟

فأعاد عبد الملك كلامه .

فقال عمر :

أما تغضب أنت يا عبد الملك ؟

فقال الفتى رحمه الله :

ما يغنى عنى جوفى إن لم أرد الغضب فيه حتى لا يظهر منه شيء .

* * *

واجتمع نفر من بنى أمية من الذين يريدون المال والجاه والسلطان إلى عبد الملك بن عمر فقالوا له :

إن أباك قطّع أرحامنا ، وانتزع ما فى أيدينا ، وعاب على سلفنا ، وإنا

- والله - لا نصبر على ذلك ، فقل له يكف عما نكره .

عزم عبد الملك على الذهاب إلى والده ، وإخباره بما قاله الأقارب .. دخل عليه ، وحكى له ما كان من الأهل وأولاد العمومة ، فكأن عمر وَجَدَ فى نفسه مما قال ، ولما رأى عبد الملك تأثر أبوه ، وشاهد الحزن على وجهه ، قال له عبد الملك :

يا أمير المؤمنين ! امض لما تريد ، فوالله لوددت أنه قد غلت بى وبك القدور فى الله !!

فقال له عمر رحمه الله :

جزاك الله خيراً يا ولدى .. الحمد لله الذى شد أزرى بك يا عبد الملك .

* * *

لم يتجاوز عبد الملك السابعة عشرة من العمر حتى أصبح مستشارًا للخليفة ، لا يُقْضَى أمر إلا بعبد الملك ، فكان كلما أشكل موضوع نادى المقربون والفقهاء عبد الملك ؛ ليقضى الأمر برأيه حتى صار على صغره فى الصف الأول من فقهاء الشام علمًا وزهدًا وورعًا حتى لقد قالوا عن عبد الملك (**إنه أعجوبة تاريخ ونادرة فلك**) .

* * *

عرض عمر رضى الله عنه يومًا على وزيره مزاحم ما يفعله ببعض المال ، وكان ذلك العرض أمام الناس فقال مزاحم :

ولدك يا أمير المؤمنين أحق به !

فلما بلغ عبد الملك ما قاله مزاحم ، أسرع إليه فلقيه فقال له :

بئس وزير الخليفة أنت يا مزاحم !!

ثم انطلق إلى أبيه ، ولم يزل به حتى دفع المال إلى بيت المال وحذره من وزراء السوء .

كان عمر يرى أن الأموال التى أخذت من الناس فى غير عهده ظلم ليس مسئولًا عنها ، واختلف الفقهاء ، ولم يصلوا إلى رأى فقالوا :

نادوا عبد الملك .

فقال عبد الملك رحمه الله :

يا أمير المؤمنين أرى أن تردها ، فإن لم تفعل كنت شريكًا لمن أخذها .

* * *

مواقف عديدة وكثيرة لعبد الملك ، ولا يملك الأب الخليفة إلا أن يضم ابنه النابغة إلى صدره ويشبع رأسه ووجهه لثمًا وتقبيلًا .

هذا الابن البار بأبيه ، والذى أوشك على السن التى يقضى بها بين الناس ، أصبح فجأة عديم الحركة .. قليل الكلام .. ملازم الفراش .. يتلوى من الألم .

كثر دخول الأطباء وخروجهم عليه ، وهو ملقى على سريره ، وأعراض المرض الشديد بادية عليه ، لقد زاد هزاله يومًا بعد يوم ، والأب مشغول بالرعية ، يمر على فتاه من وقت لآخر ، والله أعلم بما يكابد .

ولكن العلة أحكمت ، وزاد المرض ، والتفت عمر إلى الأطباء فقالوا :

إذا مس الطاعون وهو قرحة فوجد ليّنا طمع لصاحبه فى البرء منه ، وإن كان خشنًا يئس من صاحبه .

* * *

دخل الخليفة على فلذة كبده فقال :

دعنى أمسُّ قرحتك ، فكره عبد الملك أن يمسَّها أبوه فيجزع ، وكانت متحجرة خشنة ، فقال :

أو تعفنى يا أمير المؤمنين ؟

فعلم عمر لِمَ منعه . فقال :

ولم يا أمير المؤمنين !؟ فوالله لأن أقدمك فأجدك فى ميزانى أحب إلىّ من أن تقدمنى فتجدنى فى ميزانك .

فقال الابن البار :

وأنا يا أمير المؤمنين .. لأن يكون ما تحب أحب إلىّ من أن يكون ما أحب فلمسها فقال :

يا عبد الملك ! ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ (1) .

فقال عبد الملك :

﴿ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (2) .

* * *

غاب الأب قليلًا ، ثم رجع ملهوفًا إلى ابنه يجود بنفسه ، فقال :

كيف تجدك يا بنى ؟

قال رحمه الله :

أجدنى فى الموت ، فاحتسبنى يا أمير المؤمنين ! فإن ثواب الله خير لك منى .

قال عمر :

رضى الله عنك يا بنى ! فإنك لم تزل تَسُر أباك ، وأنت فى الخِرَق ، وما كنت قط أُسَرَّ منك حيث يصيرك الله فى ميزانى ، فرضى الله عنك ، وعن كل شاهد وغائب دعا لك بالخير (3) .

وما كاد عمر يخرج إلى الناس ليستمع إلى شكواهم ومطالبهم حتى عاد إلى ابنه ، وكان قد فارق الحياة .

كشف عن وجهه ، وأنعم النظر .. ثم قال :

رحمك الله يا بنى ، سررت بك يوم بشرت بك ، ولقد عمرتَ مسروراً

---

(1) سورة آل عمران الآية : ٦٠ .

(2) سورة الصافات الآية : ١٠٢ . والخبر فى التعازى : ص ٧٩ تحقيق إبراهيم محمد الجمل .

(3) الخبر فى التعازى : للمبرد ص : ٨٩ تحقيق إبراهيم محمد الجمل .

لك ، وما أنت عليّ ساعة أنا بك فيها أسر منى بك من ساعتى هذه . أما – والله – إن كنت لتدعو أباك إلى الجنة !! [1] .

* * *

دعا عمر رضى الله عنه أبا قلابة ، وكان يستعد لِغُسْل عبد الملك رحمه الله ، وقال :

إذا غسلته وكفنته ، فآذنى به قبل أن تغطِيَ وجهه ، فنظر إليه ، وقال : رحمك الله يا بنى ، وغفر لك .

خرج الناس بسريره ليُصلىَ عليه ، فصف عمرُ الناسَ ، ثم قام هو حيال صدره أو رأسه ثم قال :

هكذا يقوم ولى الرجل من الرجل ، ومن المرأة يقوم حيال وسطها ، فلما صار إلى القبر ، دخل فيه ، وأخذ برأس ابنه حتى وضعه فى اللحد .

قال زياد بن حسان :

إنه شهد عمر بن عبد العزيز دفن ابنه عبد الملك رحمه الله ، وسوى عليه التراب ، سووا قبره بالأرض ، وصنعوا عند رأسه خشبتين من زيتون إحداهما عند رأسه ، والأخرى عند رجليه ، ثم جعل قبره بينه وبين القبلة ، ثم استوى عمر قائمًا ، فلما رآه الناس قائمًا قاموا ، فقال رضى الله عنه : **اجلسوا ، فإنما يجب القيام على أولياء الميت .**

فلما انتهى من قبول التعزية أحاط به الناس ، فنظر إلى قبر ابنه ، ثم قال :

والله يا بنى لقد كنت بَرًّا بأبيك ، والله ما زلت مذ وهبك الله لى مسرورًا بك ، ولا والله ما كنت قط أشد سرورًا ، ولا أرجى لحظى من الله فيك منذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله فيه .

---

(1) المرجع السابق .

فرحمك الله ، وغفر ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، ورحم الله لكل شافع يشفع لك بخير من شاهد أو غائب . رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره ، والحمد لله رب العالمين .

* * *

انصرف عمر راجعًا ، وفى أثناء سيره رأى قومًا يرمون ، فلما رأوه أمسكوا ، فقال :

ارموا ، ووقف عليهم .

فرمى أحد الرامين ، فأخرج ، فقال له عمر :

أخرجت ، فقصر ، ثم قال للآخر :

ارم .

فرمى ، فقصّر ، فقال عمر :

قصّرت ، فبلغ .

فقال له مسلمة بن عبد الملك :

يا أمير المؤمنين : أيفرغ قلبك لما يفرغ له ، وإنما نفضت يدك من تراب قبر ابنك الساعة ، ولم تصل إلى منزلك بعد ؟

فقال له عمر رضى الله عنه :

يا مسلمة : إنما الجزع قبل المصيبة ، فإذا وقعت المصيبة فَالْـهُ عما فاتك .

ويقال إن عمر بن عبد العزيز وهو يدفن ابنه عبد الملك رأى رجلًا يشير بشماله ، فقال له :

يا هذا : إذا تكلمت فلا تشر بشمالك .. أشر بيمينك .

فقال الرجل :

ما رأيت كاليوم أن رجلًا دفن أعز الناس ثم إنه يهمه شمالى ويمينى .

* * *

خطب عمر بن عبد العزيز الناس بعد وفاة ابنه عبد الملك ، فكان مما قاله :

إن الله جل ذكره لم يجعل لمسىء خلودًا فى الدنيا ، ولم يرض بما أعجب أهلها ثوابًا لأهل طاعته ، ولا ببلائها عقوبة لأهل معصيته ، فكل ما فيها محبوب متروك ، وكل ما فيها من مكروه مُضْمَحِل .

كتب على أهلها الفناء ، وأخبر أنه يرث الأرض ومن عليها ، فاتقوا الله ، واعملوا ليوم ..

﴿ لَا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [1].

* * *

كتب رجل إلى عمر يعزيه ، فأجابه :

إنى لم أزل فى صحة منه وسلامة ، موطنًا نفسى على فراقه والسلام .

وكتب إلى عماله :

إن عبد الملك بن عمر كان عبدًا من عبيد الله أحسن إليه وإلى أبيه فيه ، أعاشه ما شاء ، ثم قبضه إليه ، وكان ما علمت ـــ والله أعلم به ـ خيرًا ، ومن صالحى شباب أهل بيته قراءة للقرآن ، وتحريًا للخير ، وأعوذ بالله أن تكون لى محبة فى شىء من الأمور يخالف محبة الله ، فإن ذلك يَحْسُن بى فى إحسانه إلىّ ، وتتابع نعمه علىّ .

وقد قلت الذى كان بما أمر الله عز وجل أن أقوله عند المصيبة ، ثم لم أجد بحمد الله إلا خيرًا ، ولا أعلم ما بكت عليه باكية ، ولا ناحت عليه نائحة ، ولا اجتمع لذلك أحد ، فقد نَهَيْنَـا أهله الذين هم أحق بالبكاء عليه [2] .

* * *

---

(١) سورة لقمان الآية : ٣٣ . والخبر فى التعازى للمبرد ص : ٧٨ تحقيق إبراهيم محمد الجمل .

(٢) المرجع السابق ص : ٩١ ،

لقد دُرِّب عمر منذ الصغر ، وقبل الخلافة على مواساة الناس ، وإظهار منزلة الصبر فى حياة المؤمن ، والعمل بما وعى وفهم مستمدًا كل هذا من معاملته مع ربه .. قوى الإيمان .. ثابت العقيدة .

قال له الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك يومًا :

يا عمر : هل يكون المؤمن فى حالة تنزل به المصيبة ، فلا يألم لها ؟
قال عمر :

لا .. يا أمير المؤمنين ! لا يكون أن يستوى عندك ما تحب ، وما تكره ، أو تكون الضراء والسراء عند أحد سواء ، ولكن معول المؤمن الصبر .

* * *

كان الناس يتكاثرون .. يبكون ويواسون الخليفة عمر بن عبد العزيز قاصدين التخفيف عن أمير المؤمنين فى موت عبد الملك ابنه ، ولكن عمر كان يسبقهم بالنصيحة والموعظة .

وقف مرة بين الناس ، وهم يواسونه فكان مما قاله :

الحمد لله الذى جعل الموت حتمًا واجبًا على خلقه ، ثم سوى بينهم فقال :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ (١) .

فليعلم ذوو النهى أنهم صائرون إلى قبورهم مفردون بأعمالهم ، واعلموا أن عند الله مسألة فاضحة ، فقال عز وجل :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

* * *

---

(١) سورة آل عمران الآية : ١٨٥ ، سورة الأنبياء الآية : ٣٥، سورة العنكبوت الآية : ٥٧ .
(٢) سورة الحجر الآية : ٩٢ ، ٩٣ والخبر فى التعازى : للمبرد تحقيق إبراهيم محمد الجمل ص : ٧٧.

قال أبو الحسن المدائني : أخبرنا العباس بن معاوية قال :

عزى محمد بن الوليد بن عتبة بن أبي سفيان عمر بن عبد العزيز عن ابنه عبد الملك ، فقال :

يا أمير المؤمنين ! لِيَشْغَلْك ما أقبل من الموت إليك عمن هو فى شغل عما دخل عليك ، وأعدد لما ترى عُدَّة تكون لك جُنّة من الحزن ، وسترًا من النار .

فقال أمير المؤمنين :

فهل رأيت حزنًا يُنْكَر ، أو غفلة أُنَبَّه لها ؟

فقال :

يا أمير المؤمنين : لو أن رجلًا ترك تعزية رجل لعلمه ، وانتباهه ، لَكُنْتَه . ولكن الله قضى أن الذكرى تنفع المؤمنين .

* * *

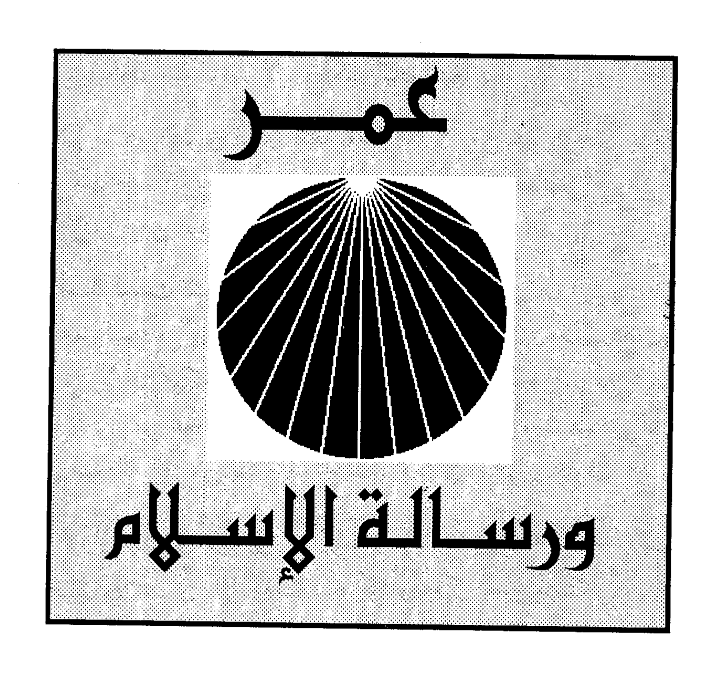
رثى الناس عبد الملك ، وتكلموا عن فضله مع صغره وذكائه النادر ، وعلمه الغزير ، وعمر يتقبل كل هذا بصبر الواثق بما عند الله وكان مما قيل ليواسوا به الخليفة عمر ، وليصرفوا عنه حزنًا ألمّ به :

تـعـزّ أمـيـر المؤمـنـين فـإنّـه ... لِما قد ترَى يُغْذى الصغير ويولدُ

هل ابنك إلا من سُلالة آدم ... لِكـلٍّ حـوض المنـيـة مـورد[1]

* * *

(١) التعازى : للمبرد تحقيق إبراهيم محمد الجمل ص : ٧٨ .


عمر
ورسالة الإسلام

عمر ورسالة الإسلام

إن ما قام به عمر بن عبد العزيز في أثناء توليه الخلافة في عصر بني أمية يعتبر حدثًا غريبًا وعجيبًا في مسرى الحياة في ذلك العصر .. لم يفعل عمر ما فعله في عهده من تلقاء نفسه ، لِيُقال إنه ابتكره ليكون على غير مثال سابق ، فيكون مبتدعًا .. لا .. لكنه كان متبعًا .

ثم ما هو الطريق الذي اتبعه وسار فيه؟ ومن هم الرجال الذين سارَ على منهاجهم؟ ومن أين استقوا عقائدهم وأعمالهم؟ ولمن كانوا يخضعون؟ ومن الذي كان عمر يخافه ويتقرب إليه؟

أسئلة ليست صعبة؟ لكنها في حاجة إلى إيمان وإيقان وبصيرة ؛ لأن ما فعله عمر ليس في مقدور الإنسان العادي أن يأتي بمثله مهما كانت قدرته وقوته .. إلا أن تحركه قوة خارجة عن إرادته ، فما قام به عمر بن عبد العزيز نعتبره نحن من الوحي والوحي ليس خاصًا بالأنبياء وحدهم ، وإنما يوحي المولى سبحانه إلى من يشاء من عباده ، وما يشاء من مخلوقاته :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [1] .

وأم موسى ليست رسولًا ولا نبيًا .

فالوحي أيضًا ليس خاصًا بالرسل ، بل يوحي الله سبحانه وتعالى إلى ما يشاء ومن يشاء فيكون بمعنى الإلهام :

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾ [2]

---

(١) سورة القصص الآية : ٧ .

(٢) سورة النحل الآية : ٦٨ .

لذلك لا نستبعد أن يلهم المولى سبحانه وتعالى عمر بن عبد العزيز؛ لأن الأمر يتعلق بدعوته سبحانه وتعالى، وإصلاح عباده كي يريهم أن طريق دعوة الإسلام هو الطريق الصحيح لإصلاح الإنسانية .

إن ما قام به عمر إنما هو إلهام من الله ليبرهن على أن دعوة محمد بن عبد الله التى استقى منها عمر مبادئه قائمة - إن شاء الله - إلى يوم القيامة فلا يمر مائة عام إلا ويوفق الله لها من يجددها، وسيظل ذلك ما دامت الحياة الدنيا، وما دام القرآن يتلى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[1] .

* * *

إن نبضات قلب عمر، وكل تحركاته وتفكيره، بل وانتفاضة جسمه نابعة من فهمه العميق لدعوة الإسلام، تلك الدعوة التى نشر لواءها سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ، وسار عليها الخلفاء الراشدون من بعده، ثم تناساها خلفاء بنى أمية، فجددها من بينهم الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وسط ظلام دامس لا يعلم مداه إلا الله، فأزال الظلم، ونشر العدل، وغير مجرى الحياة، وبهذا نستدل على أن هذا الدينَ صالح بدستوره وقوانينه ومنهاجه لكل زمان ومكان، للأفراد والجماعات والمجتمعات إلى يوم القيامة رغم أنف المعاندين وأصحاب النزوات والمغرضين .

كان أول ما فكر فيه عمر أن رأى أنّ إصلاح الرأس الذى يتمثل فى الولاة الذين تحت إمرته أن يكونوا صالحين؛ لأن ذلك بداية الصلاح والاستقرار، فعزل الولاة الجائرين فى الوقت الذى كان فيه هو كبير الولاة مثلًا أعلى لمن ولاهم فى الأقاليم .. إذ رفض كل مظاهر الأبهة والفخفخة من أول يوم تولى فيه الحكم .. من مواكب وسرادقات، وهو يعلم جيدًا كم

(١) سورة الحجر الآية : ٩ .

تتكلف إقامة مثل هذه الأمور من أموال ، ورد مجالس بنى أمية التى كانت تشبه مجالس الأباطرة المتمسكة بسنن كسرى وقيصر إلى بساطتها الأولى فى وضعها الإسلامى .

نهى عن القيام له ، وابتدأ بالسلام ، وأباح الدخول عليه بغير إذن ، وخرج من كل ماله وعقاره ، ورده إلى بيت مال المسلمين ، وبلغ من الزهد والتقشف فى المعيشة مبلغًا يعجز عنه الزهاد ، فقد كان أحيانًا يتأخر يوم الجمعة ، وهو خطيب الجمعة إلى أن يجف قميصه ، وقد يكون طعامه العدس والبصل والزيت والثوم ، ويكون سعيدًا بهذا الطعام ، ثم إن الخليفة يشتهى أن يحج فلا يجد من المال ما يساعد على ذلك ، فيقول له مولاه :

يا أمير المؤمنين : تجهز فقد جاءنا مال سبعة عشر ألف دينار من بعض مال بنى مروان فيقول :

اجعلها فى بيت المال ؛ فإن تكن حلالاً فقد أخذنا منها ما يكفينا ، وإن تكن حرامًا فكفانا ما أصبنا منها ، وكانت نفقته اليومية لا تزيد على درهمين ، فى الوقت الذى يفرض للولاة ثلاثمائة دينار لكل واحد ليغنيهم عن الخيانة والسرقات بكل أنواعها .

كان رضى الله عنه يتورع عن تسخين الماء على مطابخ العامة ، ويتورع عن شم مسك الفيء ، وكان يطفئ الشمعة التى زيتها من بيت مال المسلمين إذا شغله أحد بالسؤال عن شخصه ؛ كراهية لإنفاق مال المسلمين فى غير حاجاتهم .

* * *

لم يكن تورعه وضنه على مال المسلمين نزعة غريبة فى الزهد ، وإنما هى الطبيعة التى استمدها من تعاليم الدين ، ونتيجة الإيمان القوى ، ومعرفته لقيمة الحياة ، واستحضار الآخرة ، ومبادئ دينه .

لقد ضرب أروع الأمثال لعماله وأمرائه فى الورع والزهد والتحرز من الشبهات .

كان يطلب من الولاة ما داموا قد رضوا بمنصبهم هذا أن يكونوا أشحة على أنفسهم ، أسخياء على المسلمين ، فكان حريصًا على أن يوفر على المسلمين أموالهم ، ويعتقد أن الدرهم دم فلا يجوز أن يجرى فى غير عروقهم ، وأن يُصْرف فى مكانه اللائق به بعيدًا عن الكماليات والشكليات ، وكل هذا من صميم دعوة الإسلام ومنهاجه .

* * *

لقد سوى بين المسلمين جميعًا ، وبخاصة فى العطاء ، فليس عنده أمير فيمنحه الكثير من المال والمكانة والتفضيل ، وغير أمير فيعطى الأقل ، ويقلل من مكانته ، والتفضيل عليه .

كلا .. الكل أمامه سواء .. لا فرق بين هذا وذاك ، وهذا مبدأ من مبادئ دعوة محمد بن عبد الله ﷺ ، والتى سار عليها الخلفاء الراشدون من بعده ، ونرى ما سار عليه عمر بن عبد العزيز فى حكمه أنه أرجع عهد جده عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

جاء ابن عبد العزيز فحارب التقسيم فى الحكم ، فجمع بين الإرشاد والدعوة ، وبين جباية الأموال وحراسة النفوس والأرواح ، وأصبح مسئولًا عن كل أمر من أمور الناس ، عن أخلاقهم وأفكارهم وعقائدهم ، وعن الطريق الذى يوصلهم إلى السعادة العليا فى الآخرة .

وكان بنو أمية حينما تولوا الحكم قد قسموا واجبات الخلافة فاستقلت الخلافة بالأعمال الإدارية والمالية ، وانفرد العلماء بالحسبة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والدعوة والإرشاد ، فجمع عمر بين الناحيتين كما كان عليه الحال فى عهد الخلفاء الراشدين ، وظهر كل ذلك فى رسائله التى بعث بها إلى الولاة والحكام .

حط العشور والضرائب التى فرضتها حكومات بنى أمية ، وقال :

فأما المسلمون فإنما عليهم صدقات أموالهم إذا أدوها لبيت المال ، كتبت لهم البراءة ، فليس عليهم فى عامهم ذلك فى أمواله تباعة ، وفتح طريق البر والبحر للتجارة الحرة ؛ فالبر والبحر متساويان فى التجارة .. قال تعالى :

﴿ اللَّهُ الَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِىَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ ﴾ [1] .

فلا يكون هناك تفرقة بين من يتاجر فى البر ، ومن يتاجر فى البحر ، وقد كان خلفاء بنى أمية من قَبْل عمر يفرضون ضرائب على تجار البحر .

* * *

لم يترك عمر بابًا من أبواب الإصلاح إلا طرقه ، فأمر بأن يكون تمام مكيال الأرض وميزانها واحد فى جميع الأرض كلها ، فلا يختلف باختلاف البلاد ، كما كان عليه الحال فى عهد بنى أمية .

لقد حرم الخليفة عمر على العمال وموظفى الدولة أن يتجروا فلا يحل لأمير ولاه عمر ، ولا لعامل أن يتاجر وهو فى ولايته ، حتى لا يستأثر ، ويصيب أمورًا فيها عنت ومصالح له قد تضر بالآخرين ، وكان حريصًا على أن لا يحصل مثل ذلك .

وكذلك حرم السخرة بأنواعها ، وهذا ما درجت عليه الحكومات فى عصورها المختلفة .

وكان أمراء بنى أمية قد استولوا على مساحات شاسعة من الأراضى المملوكة للغير ، واتخذوها حمى ، وحرموا منها أفراد الشعب فمنع ذلك ، وبهذا فقد وافق ما جاءت به شريعة الإسلام .

(١) سورة الجاثية الآية : ١٢ .

وفطن عمر لأمور دقيقة لا تسترعى اهتمام الخليفة ، وعرف منافذ السوء والخيانة فسدها ، ونضرب لذلك مثلاً : فقد نبهه عمر للمفاسد التى ستترتب عليها ، منها قبول الهدايا التى كانت تهدى إلى الولاة والعمال ، وكانوا يقبلونها فقد ادعوا قبولهم لها ؛ لأن النبى ﷺ قبل الهدية ، وقال عمر رضى الله عنه :

هو لرسول الله هدية ، وهو لنا رشوة ، ولا حاجة لى به .

* * *

لقد توسعت البلاد ، وأصبح لا يستطيع أن يلم بما فيها ومن فيها ، وأصبح من المستبعد أن يطلع على نوايا الناس وأعمالهم .. لكنه يريد أن يتقصى ما يدور حوله حتى يطمئن على راحة العباد ، فقد أعلن الجوائز والمكافآت المالية لمن يخبره بحقيقة الحال ، أو يشير عليه بشىء يرى أن فيه مصلحة للمسلمين ، ومصلحة لدولتهم ، وكتب فى ذلك كتابًا وزعه على الأمصار .

حارب الخليفة عمر المحسوبية بكل أنواعها ، وكان يرى أن الحاكم الذى يفتح الأبواب للاستغلال أمام الأقارب والمحاسيب .. إنما يفتح أبوابًا من البلاء على نفسه وعلى الناس ، فحاربها بكل ما استطاع من قوة ، وقد عرفنا أنه حينما تولى الخلافة استخلص حقوق الأمة والأفراد من أيدى بنى أمية وبنى مروان فى صرامة وشدة ، ولم يقبل فى ذلك شفاعة ولا وساطة .

ولقد كتب بعزل أحد الأشخاص ؛ لأنه غير صالح للعمل ولأنه قريب للخليفة .. كتب إلى الجراح واليه على خراسان يقول :

(بلغنى أنك استعملت عبد الله بن الأهتم ، وأن الله لم يبارك لعبد الله ، ولا لأهل بيته فى العمل .. فإذا أتاك كتابى هذا ، فاعزله ، وإنه مع ذلك لذو قرابة لأمير المؤمنين) .

* * *

وكما أشرنا سابقًا إلى أن عمر كان يحذر عماله من المكس والعرافة ؛ لأنها ليست من الدين ، والعريف هو رئيس القوم وقيمهم الذى يسوسهم ، وإذا جاء عن طريق الظلم والاستغلال استحق العقوبة ، وقد جاء فى ذلك حديث رسول الله ﷺ :

« **العرافة حق ، والعرفاء فى النار** » .

وذلك حين يستغلون نفوذهم ، ويظلمون الناس .

والمكس : الجباية بغير وجه حق ، وهى الدراهم التى كانت تؤخذ من التجار ، وقد يأخذها جامع الزكاة بعد فراغه من أخذ الصدقات ؛ وقد نهى النبى ﷺ عن ذلك وقال :

« **لا يدخل صاحب مكس الجنة** » .

وقيل فى معنى المكس : الرشوة ، والإتاوة ، وقيل أيضًا : هو أخذ مال بسلطة النفوذ والجاه بدون وجه حق .

ومما يؤثر عن سلوك عمر فى رد المكوس ما يرويه يزيد بن الأصم قال : كنت جالسًا عند سليمان بن عبد الملك ، فجاء رجل يقال له أيوب - وكان على جسر منبج - يحمل مالًا يُؤخذ على الجسر فقال عمر :

(**هذا رجل مترف يحمل مال سوء**) .

فلما جاء عمر خلّى سبيل الناس بين الجسور والمعابر ، وهذا من المكوس التى تؤخذ بدون وجه حق ، وقد قال رضى الله عنه فى النهى عنها :

﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [1].

* * *

وكما قلنا استمد عمر سياسة المال من الدين ، وهى قائمة على العدالة ، فأخذ من مال الدولة ما يكفيه ، ولم يأخذ عماله ، وولاته بما يأخذ به نفسه ، بل فرض لهم ما يكفيهم حتى لا تتطلع عيونهم إلى ما ليس حقًّا

(١) سورة هود الآية : ٨٥ .

لهم ، وجعل مال المسلمين لا لعمر ولا لآل بيت عمر وأقاربه .

كان يعطى منه أصحاب الحقوق ، ويقضى منه ديون الغارمين ، ويزوج منه أبناء غير القادرين ، ويوسع به على الناس متى لزم الأمر ، وأصبح هناك فائض للتوسعة :

ويحكى لى أحد المهندسين الذى عاش زمنًا طويلًا فى دولة (السويد الأوروبية) فى وقتنا هذا أنه يوجد فى هذه الدولة مؤسسة تسمى مؤسسة عمر لتزويج الشباب وقضاء بعض مصالحه ، وأنهم استمدوا هذا العمل مما قرأوا عما كان يفعله عمر بن عبد العزيز ومما لا شك فيه أن كثيرًا من غير المسلمين أعجبوا بسيرة عمر فى عهده وبعده من تتبعهم لسيرة المخلصين كى يصلحوا من شأن رعاياهم .

* * *

لقد أخرس عمر صوت العصبية والقبلية ، وقضى على التفرقة التى كانت بين الأمويين والعلويين للأسباب السياسية المعروفة ، وكان لهذا وقع كبير على المسلمين جميعًا ، وبخاصة الذين أحبوا عليًا وأولاده ، وكان لهذا وقع عظيم أيضًا على أبناء على وأحفاده فأرسلوا إليه داعين شاكرين مؤيدين .

وكان ممن أرسل إليه : فاطمة بنت الحسين بن على رضى الله عنهم .



لعبد الله عمر أمير المؤمنين من فاطمة بنت حسين : سلام عليك فإننى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو : أما بعد فأصلح الله أمير المؤمنين وأعانه على ما ولاه ، وعصم له دينه ، فإن أمير المؤمنين كتب إلى أبى بكر محمد بن حزم أمير المدينة أن يقسم فينا مالًا .. يتحرى بذلك ما كان يصنع من كان قبله من الأئمة الراشدين المهديين ، فقد بلغنا ذلك ، وقسم فينا .

فوصل الله أمير المؤمنين ، وجزاه من والٍ خير ما جزى أحداً من الولاة ، فقد كانت أصابتنا جفوة ، واحتجنا إلى أن يعمل فينا بالحق .

فأقسم بالله يا أمير المؤمنين لقد اختدم من آل رسول الله ﷺ من كان لا خادم له ، واكتسى من كان عاريًا ، واستنفق من كان لا يجد منا ما ينفق .

ورد عمر على رسالة فاطمة بنت الحسين يذكر فضلها ، وفضل أهل البيت ، ويذكر أنه لم يفعل إلا ما أوجبه الله عليه متبعاً فى ذلك رسالة السماء .

* * *

إن رسائل عمر بن عبد العزيز سواء ما ذكرنا منها أم لم نذكر ، والتى أرسلها إلى عماله وولاته تصلح أن تكون دستورًا وقانونًا يرجع إلى مادته كل من حرص على إقامة دولة يريد أن تعيش سعيدة فى دنياها وآخرتها ؛ لأن مادته من الخالق . وهو أعلم بما ينفع ويفيد ، وضرب لنا عمر مثلًا أعلى على صدق رسالة السماء وردًا على مَن يستهين بها أو يقلل من شأنها أو يحاول أن ينقص من قيمتها وقدرها .

لقد جنى عمر ثمرة إخلاصه في ولايته ، فقد نفّذ ما أمر الله به ولم يجامل ولم يحاب ولم يحد قيد أنملة عما أمره الله من العدل والمساواة وتنفيذ أوامر المولى جل وعلا ، فأوجد أناسًا آمنوا واتقوا فحقق الله لهم الخير والبركة .

﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ (1) .

فإن البركة لا محالة ستحل فى كل أنحاء البلاد ، وسيأمن الناس على

(1) سورة الأعراف الآية : ٩٦ .

حياتهم ، لأن رئيس الدولة وكبيرها أعطى كل ذى حق حقه ، فلم يعد هناك ظالم ولا مظلوم ، ولا أمير ولا مأمور ولا غنى مستغل ولا فقير محروم الكل يجد لقمة حلالاً ، الكل يعمل ويجتهد ، وليس فى حاجة إلى صدقة أو سلفة أو زكاة أو استجداء .

* * *

خرج عمر ومعه مزاحم ليطمئن على أحوال الرعية ، ولعله يصادف مظلومًا أو محرومًا ، فلقيه رجالٌ جاءوا لزيارة أقارب لهم ، فسألهم عمر عن أحوال الناس فى البلاد ، وكيف تركوا العباد .

قال واحد منهم :

تركتهم والظالم مقهور ، والمظلوم مجبور ، والغنى موتور والعائل مجبور .

سر عمر كثيرًا بما سمع ، ثم رجع إلى دار الإمارة وسأل هل من جديد ؟

قال مزاحم :

كتاب يحيى بن سعيد عامل الزكاة على أفريقية .

صاح عمر فى عجب :

ماذا يريد يحيى بن سعيد ؟!

قال مزاحم :

كتب إلينا يقول إنه لا يجد فقيرًا يعطيه الزكاة بعدما جمعها ؛ لأن الناس انصرفوا إلى العمل والكسب ، وأخذ المحتاجون حقوقهم .

تهلل وجه عمر ، ورفع يديه إلى السماء شاكرًا حامدًا داعيًا الله أن يجزل له الثواب من فضله وكرمه ، ثم اتجه إلى مزاحم وقال له :

اكتب إليه يا مزاحم : فليشتر بأموال الزكاة عبيدًا ويعتقهم ، وليحرر عباد الله الذين استرقهم الناس .

وهذا كله نتيجة الإخلاص وأداء الواجب واتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه .

* * *

أدى عمر بن عبد العزيز واجبه كما أمره ربه سبحانه وتعالى ، وتجسد فى سيرته القدوة الصالحة ، وصار مثلًا حيًا لمن يريد أن يسير على المنهاج السماوى ، وضرب الله جل وعلا به أروع مثالٍ لمن يريد أن يسلك طريق الهدى والصلاح .

لم يبق إلا أن يستجيب لنداء ربه لينال المنزلة التى أعدت له ، ويأبى الله إلا أن يأتيه شهيدًا ، فيموت وهو يكافح ويناضل فى سبيل إحقاق الحق ، وإماتة الباطل ، كما مات من قبلُ عمر بن الخطاب حينما ضربه أبو لؤلؤة المجوسى وهو قائم فى صلاته ، وكما قتل عثمان بن عفان حينما اعتدت عليه الطائفة الباغية ، ومن بعده قتل على بن أبى طالب .. إنهم كلهم شهداء لقد لقوا الله ودماؤهم تنزف ، فكانت الدرجة الكبرى حتى ألحقه الناس بالخلفاء الراشدين ، فأسموه (خامس الخلفاء الراشدين) لما قام به من أعمال صالحة ألحقته بهم .

فهل سيموت ميتة طبيعية ؟ إن القوم قد تربصوا به ، وأعدوا له ما به يتخلصون منه فتحايلوا على قتله ، ووجدوا من سيسعى إلى ذلك مما به ينال الدرجة العالية عند الله ، فلن يموت ميتة طبيعية ، لا ... إن روحه ستتعذب وهى تخرج من جسده ، وفى ذلك ترتفع مكانته فيكون بين الشهداء والصديقين والصالحين ، وقد نال عمر ما تمنى ، ولقى الله وقد أعد له ما أبعده عن النار التى أقلقته فى حياة الدنيا .

* * *



بنو أمية والسم الناقع

بنو أمية والسم الناقع

يرجع الخلاف المباشر بين عمر بن عبد العزيز وبنى أمية إلى يوم أن رشحه الخليفة سليمان بن عبد الملك لولاية العهد من بعده، وقال سليمان كلمته الخالدة:

(لأعقدن عقدًا لا يكون للشيطان فيه نصيب) !!

وهذا تصريح خطير، فقد كان للشيطان نصيب فى كل عَقْدٍ عُقِدَ فى عهد بنى أمية الطويل ابتداء من الخليفة معاوية الذى كان أول من جعل الحكم وراثيًا يتميز أهله بميزات دنيوية لم تكن موجودة فى عهد الخلفاء الراشدين، وليس لها مبادئ فى الدين الإسلامي، فجاء من بعده ابنه يزيد وكان الشيطان يجلس معه على سرير ملكه، ففعل ما يغضب الله والناس، وأعماله لا تَمُتُّ للدين بصلة، وجاء من بعده ابنه معاوية الثانى رضى الله عنه، ولم يجد الشيطان لعبة يلعبها معه، فقد رفض الخلافة، وشنع على جده وأبيه بما قاما به من أعمال تتنافى مع الدين.

وتولى بعد رفض معاوية الثانى مروان بن الحكم، وبهذا انتقلت الخلافة من فرع معاوية إلى أبناء عمومته ولم تطل مدة مروان، وكان قد تزوج أرملة يزيد بن معاوية، ووعد بأن يجعل ابنها خالدًا وليًا للعهد، لكنه نقض العهد وراح يسخر من خالد وأمه، فقتلته المرأة شر قتلة، فقد انتظرت حتى أخذه النوم، فوضعت الوسادة فوق وجهه، وجلست عليها بمؤخرتها حتى لفظ أنفاسه، والشيطان يقهقه سخرية واستهزاء ممن لا يراعى حرمة الله والدين والحكم.

وتولى الخلافة بعد مروان ابنه عبد الملك والشيطان يساومه، ومن بعده جاء ابنه الوليد، ولم يكن إخلاصهما كاملًا لله.

ثم تولى الخلافة أخو الوليد سليمان بن عبد الملك ، وهداه الله إلى الخير ، فعقد العقد الذى لم يكن للشيطان نصيب فيه ، وهو أن جعل الخلافة من بعده لابن عمه عمر بن عبد العزيز ، وحقًا لم يكن للشيطان نصيب فيما ذهب إليه .

اتخذ عمر بن عبد العزيز موقفًا جديدًا من أهله وأقاربه من بنى أمية وبنى مروان ، وكانت صورتهم وأعمالهم ومآسيهم واضحة المعالم فى ذهنه وذاكرته ، فهؤلاء القوم قد ساموا الناس العذاب والإرهاق ، وحملته الخلافة أوزارهم ، فقد عاشوا لنزواتهم وأعمالهم ومتاعهم الدنيوى غير عابئين بدين ولا خلق .

لقد كانوا يمتلكون ثلثى الثروة ، ويحيطون أنفسهم بجنود وأعوان وخدم ونساء وجوارٍ من كل البلاد ، فيعيشون أولًا لرغباتهم وشهواتهم ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

* * *

جمعهم أمير المؤمنين الخليفة الذى لم يحضر الشيطان عقدته ، فقال لهم الخليفة :

يا بنى أمية : إنكم قد أعطيتم حظًا وشرفًا وأموالًا ، وإنى لأحسب شطر أموال هذه الأمة أو ثلثيها فى أيديكم فأدوا ما فى أيديكم من حقوق ، ولا تلجئونى إلى ما أكره ، فأحملكم على ما تكرهون .

لم يجبه أحد منهم ، فقال أمير المؤمنين :

أجيبونى ...

قال هشام بن عبد الملك ، وهو واحد من الذين كانوا ينتظرون ولاية العهد ، ليغرق فى أبهة الملك والنعيم والرفاهية ، والذى كان ينتظر الإرث الذى ورّثه له أبوه وأجداده من قبله :

والله لا نخرج من أموالنا التى صارت إلينا من آبائنا ، فنفقر أبناءنا ، ونكفر آباءنا حتى تزايل رءوسنا أجسامنا .

فقال الخليفة :

والله لولا أن تستعينوا علىّ بمن أطلب هذا الحق له لأخضعتكم عاجلًا .. لكنى أخاف الفتنة ، ولئن أبقانى الله سبحانه وتعالى لأردن إلى كل ذى حق حقه إن شاء الله .

* * *

اجتمع الخليفة عمر مع الفقهاء والعلماء ، وتشاور معهم فيما ينبغى عمله حتى يرد الحقوق إلى أصحابها ، فيأخذ كل ذى حق حقه !

لقد رأى البعض أن يبقى الحال حال الماضى كما هو ، وكل أمير وما معه من أموال وضياع وعقار .

وكان هناك من قال للخليفة :

إنك بتوليتك أمر المسلمين أصبحت مسئولًا عن الرعية فى ماضيها وما فيه من ظلم واستغلال ، وعن حاضرها ومستقبلها ، وعليك أن تعطى كل ذى حق حقه ، وأن ترد المظالم إلى أهلها .

وانتهى الاجتماع باتخاذ القرار الآتى :

١ – إلغاء كافة مخصصات من يسمون أمراء بنى أمية .

٢ – إلغاء مخصصات الحرس والخدم والأولاد والنساء ،

٣ – من كانت له مظلمة ، واغتصبت منه أرض أو عقار أو زراعات يفصل فيها ، وترد إلى أصحابها .

٤ – ينزع ما فى أيدى الأمراء من إقطاعات وأراض وأموال وهدايا إلى بيت مال المسلمين .

وهكذا فقد حمل الخليفة العادل عمر بن عبدالعزيز بنى أمية على النزول عما فى أيديهم ، والرجوع إلى صفوف الناس كى يأخذ كل ذى

حق حقه ، وأن يعيش الجميع وقد تساووا فى الحقوق والواجبات كما أمر بذلك رب العالمين ، وكما سار عليه الخلفاء الراشدون بعد النبى ﷺ .

لقد حمل الخليفة العادل بنى أمية على النزول عما فى أيديهم من الأموال التى استولوا عليها بغير حق ، وأبطل ادعاءاتهم التى يرددونها بأن هذا حقهم الذى ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ، وطلب منهم الخليفة أن ينظروا فيما يأمرهم به الدين ، وأن يدرسوا كيف وصلت هذه الأموال الطائلة إلى آبائهم وأجدادهم ، وأن يراعوا حق الله سبحانه وتعالى واليوم الآخر والحساب .

لقد ردّ كل شيء إلى بيت المال ، وإلى أصحابه الذين سلب منهم .

* * *

بدأت التظلمات تأتى إلى الخليفة ليفصل فيها .. أتاه الناس متظلمين من رَوْح بن الوليد الخليفة الأموى السابق ، وابن عم الخليفة عبد الملك بن مروان فقد كانت له حوانيت بحمص ، أقطعها إياه أبوه الوليد إبان توليه الخلافة قبل عمر بسنوات قليلة .

قال له عمر :

يا رَوْح ! اردد على الناس حوانيتهم .

قال له رَوْح :

إنها لى بسجل الوليد ، وسآتيك بصكه ..

قال الخليفة :

أبالمصحف ستجيء يا رَوْح !! ما يغنى عنك سجل الوليد ولا صكه ، الحوانيت حوانيتهم ، وقد قامت البينة عليها .. أردد عليهم حوانيتهم .

ثم قاموا منصرفين ، وقام معهم رَوْح بن الوليد ، فتوعد أحدهم ، فرجع الحمصىّ إلى الخليفة ، وقال له :

هو - والله - يتوعدنى يا أمير المؤمنين .

فقال عمر لكعب بن جابر ، وهو على حرسه :

اخرج إلى رَوْح يا كعب ، فإن سلم إليه حوانيته فذاك ، وإلّا فأتنى برأسه !!

فخرج بعض من سمع ذلك من الخليفة ، فأبلغه إلى رَوْح ، فأخذته رجفة شديدة من الهلع والخوف .. وذهب إليه كعب ، وقد سل من السيف قد الشبر ، فقال له :

قم فأخل له حوانيته !

قال رَوْح :

نعم .. نعم .. !

وخلى له حوانيته دون توعد أو إبطاء .

* * *

ويأتى دور عمته أم عمرو فاطمة بنت مروان ، وكانت ذات مكانة مرموقة عند بنى أمية وخلفائهم ، وكانت لها مكانة خاصة عند عمر ، وموضع حبه واحترامه .

وكان عمر قد ألغى ما استولت عليه بغير حق ، وكانت تظن كغيرها أنه حقها ، أو على الأقل ليست مسئولة عن أصله ومصدره ، وقد قُدِّم إليها كهدية .

راحت تناقش عمر فى هذا الحق ، وقد وجدته جالسًا يتناول طعام العشاء .

سلمت العمة ، ثم جلست تنتظر حتى يفرغ الخليفة من طعامه ، ولفت نظرها ما يأكل الخليفة أمير المؤمنين ، وهو منظر لم تره أبدًا عند أحد من بنى أمية وبنى مروان .

أمير المؤمنين يأكل خبزًا جافًا ، وعدسًا وملحًا !! .

أهذا هو عمر الذى كان يخوض فى النعيم يأكل طعامًا لا يأكله أحد .. ولم تتمالك نفسها ، فأجهشت بالبكاء ، ثم قالت :

لقد جئت فى حاجة لى .. ولكنى لم أكد أراك حتى رأيت أن أبدأ بك قبل نفسى .

قال عمر :

وماذا يا عمتاه !

قالت العمة :

لو أخذت لك طعامًا ألين من هذا ؟

قال :

لا أملك غيره يا عمتاه .. ولو كان عندى غيره لفعلت .

ثم انتقلت إلى الغاية التى جاءت من أجلها ، وهى العطاء الذى تطلبه ، والذى يكون كالعطاء الذى كان يعطيها إياه الخلفاء السابقون عبد الملك وابنه الوليد وسليمان .

قالت العمة :

لقد أعطانى عبد الملك الكثير ، وجاء الوليد فزاد ، وجاء سليمان فزاد وزاد ، وجئت أنت يا عمر ، وانتظرت أن تزيد ، ولكن حصل ما لا تحمد عقباه ، فقد وليت فقطعت ومنعت .

فقال لها الخليفة :

يا عمتاه : ... إن عمى عبد الملك وابنىّ عمى الوليد وسليمان كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس هذا المال مالى فأعطيك إياه ، ولكنى أعطيك من مالى إن شئت .

قالت :

وما مالك يا أمير المؤمنين ؟!

قال الخليفة :

عطائى .. مائتا دينار فى العام .

فسكتت العمة عن الكلام مخافة أن يصدر منها كلام قد يسىء إلى

الخليفة ، ثم انصرفت يائسة ، وهى التى كان الخلفاء يجيبونها إلى ما تطلب ، ويسارعون إلى مرضاتها .

* * *

وإن قصة عنبسة بن سعيد بن العاص ، وصلته ببنى أمية وأمرائهم وخلفائهم لتدل على قربه منهم ، ومجاملتهم له .. كانوا يقدمون إليه الهدايا والأموال ، ومن ذلك ما قدم له الخليفة سليمان بن عبد الملك قبيل موته .. لقد أمر له بعشرين ألف دينار ، فدارت فى الدواوين حتى انتهت إلى ديوان الختم ، فلم يبق إلا قبضها ، ولكن سليمان توفى قبل أن يقبضها .

ذهب عنبسة إلى الخليفة عمر ، فوجد بنى أمية وقوفًا بباب عمر يريدون الإذن لهم ليكلموه فى أمورهم ، فلما رأوا عنبسة قالوا :

ننظر ما نراه فاعلًا بصديقه قبل أن نكلمه .

دخل عنبسة على عمر ، فقال له :

يا أمير المؤمنين : إن أمير المؤمنين سليمان قد أمر لى بعشرين ألف دينار حتى انتهت إلى ديوان الختم ، ولم يبق إلا قبضها ، فتوفى على ذلك .. ولكنى متيقن من إتمام هذا الأمر على يدك ، فما بينى وبينك من الصداقة أعظم مما كان بينى وبين أمير المؤمنين سليمان ..

قال عمر :

يا عنبسة : إن عشرين ألف دينار تغنى أربعة آلاف بيت من بيوت المسلمين ، وأدفعها إلى رجل واحد ! والله ما لى إلى ذلك من سبيل .

قال عنبسة :

فألقيت بالكتاب الذى فيه الصك . فقال عمر :

لا عليك يا عنبسة أن يكون معك ، فلعله أن يأتى من هو أجرأ على هذا المال منى ، فيأمر لك به ..

فأخذت الصك ، وخرجت إلى بنى أمية وبنى مروان ، ولا يزالون وقوفًا بالباب ، فأخبرتهم بما آل إليه الأمر .

فقالوا :

ارجع إليه فاسأله أن يصرف لنا ما كان يصرفه لنا مَنْ قبله .. وإلا فاسأله أن يأذن لنا أن نلحق بالبلدان ، فرجعت إليه فقلت :

يا أمير المؤمنين : إن قومك بالباب يسألونك أن تجرى عليهم ما كان مَنْ قبلك يجريه عليهم ، فقال عمر :

والله ما هذا المال مالى ، وما إلى ذلك من سبيل !

قلت :

يا أمير المؤمنين : يسألونك أن تأذن لهم يضربون فى البلدان .

قال :

ما شاءوا .. ذلك لهم .

قلت :

وأنا أيضًا هل تأذن لى ؟

قال :

وأنت أيضًا قد أذنت لك .

ولكنى أرى لك أن تقيم ، فإنك رجل كثير النقد ، وأنا أبيع تركة سليمان لضم ثمنها إلى بيت المال ، فلعلك أن تشترى منها ما يكون لك فى ربحه عوض مما فاتك .

قال عنبسة :

فأقمت ، فابتعت من تركة سليمان بمائة ألف فخرجت بها إلى العراق ، فبعتها بمائتى ألف ، وحبست الصك ، فلما توفى عمر ، وولى يزيد ابن عبد الملك أتيته بكتاب سليمان ، فأنفذ ما كان لى فيه .

* * *

كان أمير المؤمنين جادًا فى أن يسوى بين المسلمين جميعًا ، وألّا يفرق بين مسلم ومسلم سواء أكان من بنى أمية أم من غير الأمويين ، فقضى بذلك على التفرقة الدخيلة على الإسلام ، والتى سيذيق الله مبتدعها أشد العذاب ،

فليس فى الإسلام طبقات ولا سادة وعبيد ، وكان الخليفة عمر بن عبد العزيز على حق حينما جرد أمراء بنى أمية من الضياع والامتيازات والثروات ، وجعلهم وباقى المسلمين فى الحقوق والواجبات سواء .

راح الأمويون يتبرمون ويتذمرون ، والحقد يأكل قلوبهم ، وبدأ المقت والغضب يستولى عليهم ، وكثر اجتماعهم ، واتفقوا على أن يذهبوا إلى عمر ليقولوا له :

إنك أفقرت بنى أبيك بما ترد من هذه المظالم ، وهذا أمر قد وليه غيرك من قبلك ، فدع مَنْ وليه وما كان منه يحاسبه الله على فعله ، واشتغل أنت وشأنك ، واعمل بما رأيت .

قال عمر :

أهذا رأيكم ؟

قالوا :

نعم !

قال الخليفة :

والله لوددت أن لا تبقى مظلمة فى الأرض إلّا رددتها .. والله لو لم ينهض الحق ، ويدحض الباطل إلّا بتقطيع أوصالى وأعضائى لأمضيت ذلك وأنا سعيد ، ووالله لو لبثت فيكم خمسين عامًا ما أقمت إلا ما أريد من العدل .

* * *

لقد حاروا فى أمر أمير المؤمنين ، وعجزوا أن يخضعوه لرغباتهم ، ووجدوا منه إصرارًا ليمضى فى أمر دينه ، ولينفذ ما يراه العدل والإنصاف ، أما بنو أمية فقد أغلق الله قلوبهم ، وأبعد عنهم صوت الحق ، فهم لا يريدون إلا المال والمتاع ، ولم يجدوا وسيلة ليُسْمِعوا الخليفة صوتهم إلا بالرجوع إلى عمتهم أم عمرو فاطمة بنت الخليفة مروان بن الحكم .

قالوا لها :

يا عمتاه : أنت ترين بنفسك ما يصنع بنا الخليفة ، وقد عجزنا عن كل وسيلة نفتح بها قلب الخليفة ليستمع إلينا ، ويستجيب لمطالبنا .

قالت العمة :

لقد ناقشته كثيرًا فى أمر عطائى ، فلم أر منه إلا الإصرار والتمسك بموقفه ، فرجعت وتركت الأمر لله .

فلما ألحوا عليها فى أن تعاوده ، وتعرض عليه شكواهم خضعت لما يطلبون ، ودخلت عليه لتعاود عرض ما طلبوا منها .

قالت العمة :

يا عمر : إن قرابتك يشكونك ، ويزعمون أنهم يُسَبون عندك فلا تنكر ، وأنك أخذت منهم خير غيرك ، وأعطيته للناس باسم (رد المظالم) .

قال عمر :

يا عمتاه : ما منعتهم حقًا ، أو شيئًا كان لهم .

قالت :

إنى رأيتهم يتكلمون ضدك بكلام كله وعيد وعناد ، وأخاف أن يهيجوا عليك ، ولهم نوايا سيئة أخشى نتائجها .

قال عمر وقد اشتط به الغضب :

يا عمة : إنى لا أخاف سوى حساب يوم القيامة ، وكل يوم أخافه دون هذا اليوم ، فلا وقانى الله شره .

* * *

أخذ عمر يكلم عمته ، ثم دعا بقطعة من الحديد وقد حميت بالنار حتى احمرت وتوهجت ، وقال لها :

ألا تخافين على ابن أخيك من مثل هذا ؟

فتركته عمته ، وانصرفت لتجد أبناء بنى أمية فى انتظارها ، فأخبرتهم بما أيأسهم من الطمع عنده قائلة لهم :

ذوقوا مغبة أمركم .. ولا تلوموا إلا أنفسكم يا معشر بنى أمية .. من قال لكم زوجوا حفيدة عمر بن الخطاب لعبد العزيز بن مروان ؟ إنها جاءتكم بعمر ثان !!

* * *

لم يفكر أحد من بنى أمية وبنى مروان فى أمر دينه ، ولم ير أن ما يفعله عمر إنما هو متبع وليس بمبتدع ، وأن عليهم أن يعاونوه على ما يذهب إليه من اتباعه لأصول الدين الصحيحة ، ويقفوا معه سدًّا منيعًا ضد كل من يحاول الخروج عليه .

لكنهم يخرجون كل يوم ، ويقفون بالباب لعلهم ينالون شيئًا من المال والمتاع .

خرج يومًا عنبسة بن سعيد من عند عمر وأمراء بنى أمية جلوس بالباب ، وفيهم يزيد بن عبد الملك ولى عهد عمر ، فقاموا إلى عنبسة مرددين شكاياتهم ضد عمر ، ثم قالوا :

لقد بعث عمر إلى كل واحد منا بعشرة دنانير ، ولم يمنعنا من ردها إليه إلا الخوف من غضبه وثورته .. دخل عنبسة على عمر فكلمه فى ذلك فقال له :

قل لهم إن عمر يقرئكم السلام ، ويقول لكم :

أقسم بالله الذى لا إله إلا هو ما زلت طول الليلة الماضية ساهرًا أناجى ربى ، وأستغفره مما أعطيته لكم دون المسلمين ، فلا والله العظيم لا أعطيكم بعد ذلك درهمًا إلا أن يأخذ مثله جميع المسلمين !

* * *

لقد اتبعوا أسلوبًا آخر بعد أن يئسوا من استرداد ثرواتهم وامتيازاتهم ، فقد طلبوا من عمر بن الوليد بن عبد الملك ، وكان من أكبرهم سنًا أن يكتب إلى الخليفة يهدده لعله يرجع عن رأيه ، فيرد إليهم حقوقهم التى لا يد لعمر فيها ، فكتب إليه ابن الوليد كتابًا شديد اللهجة يتوعده ويحذره من التجاوزات التى يدعى أنها رد للمظالم ، وكان مما جاء فيه :

(إنك أزريت بمن كان قبلك من الخلفاء ، وعبت عليهم ، وسرت بغير سيرتهم بغضًا لهم وشنآنًا لمن بعدهم من أولادهم ، وقطعت ما أمر الله به أن يوصل .. إذ عمدت إلى أموال قريش ومواريثهم وحقوقهم ، فأدخلتها بيت المال جورًا وعدوانًا .. يا ابن عبد العزيز ! اتق الله وراقبه ؛ فإنك لم تكد تطمئن على منبرك حتى خصصت قرابتك بالظلم والجور ...) .

وما أن قرأ الخليفة عمر بن عبد العزيز كتابه هذا حتى أخذ فى الرد عليه يذكره بتجبره وبما ارتكب من سيئات وسيئات أهله وأقاربه ، وبأنه ابن أمَةٍ اشتريت من فئ المسلمين ، وأن هذا التجبر والتفكير فيه لن يغنيك أنت وأهلك من الله شيئًا ، وكان هذا هو كتاب أمير المؤمنين :



من عبد الله / عمر أمير المؤمنين إلى عمر بن الوليد .
السلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .
أما بعد : فإنه بلغنى كتابك ، وسأجيبك بنحو منه :
أما الأول شأنك يا ابن الوليد ، فإن أمك (بنانة) كانت تطوف فى أسواق حمص ، وتدخل حوانيتها ، ثم الله أعلم بها ، اشتراها (ذبيان بن ذبيان) من فئ المسلمين ، فأهداها لأبيك ، فحملت بك ، فبئس الحامل ، وبئس المحمول .. ثم نشأت فكنت جبارًا عنيدًا .

تزعم أنى من الظالمين ؛ لأنى حرمتك وأهل بيتك من مال المسلمين الذى هو حق الفقير الجائع .. والمريض الضائع .. والمظلوم والمقهور واليتيم والأرملة والأسير .

وإن شئت أخبرتك بمن هو أظلم منى ، وأتركك لعهد اللّٰه : إنه أبوك الوليد الذى استعملك صبيًا سفيهًا على جند المسلمين تحكم برأيك .. فويل لك وويل لأبيك ، وما أكثر خصماءكما يوم القيامة .. وكيف ينجو أبوك من خصمائه !؟ .

فرويدًا يا ابن بنانة .. فلو طالت بى الحياة لأتفرغن لك ولأهل بيتك ، حتى أقيمكم على المحجة البيضاء .

والسلام علينا ، ولا ينال سلام اللّٰه الظالمين .

* * *

كان للرسالة التى تعرض فيها الخليفة لعمر بن الوليد أثرها السيء فقد اجتمعوا جميعهم ضد الخليفة عمر بن عبد العزيز ، ولم يكن هناك من الأمراء من اتقى الله ، ووقف مع الخليفة .. راحوا يفكرون فى كيفية يتخلصون منه ، أما يزيد بن عبد الملك الذى سيتولى الخلافة من بعد ابن عمه عبد العزيز ، فلم يحاول أن يقحم نفسه فى الاشتراك فى التخلص من الخليفة عمر مخافة أن يتهم فى محاولة قد تؤثر على موقفه كولى للعهد ، فترك أمر التدبير لغيره ، وأوقدها سرًا وعلمت العمة بما يدبر ضد الخليفة ، فأسرعت إليه ليتدبر الأمر إما بمحاولة أن يتراضى مع أقاربه الأمراء ، أو يحتاط لما يقدمون عليه من مؤامرة .

ذهبت إليه ناصحة ومحذرة ثم قالت :

لقد سمعت القوم يتكلمون والشرر يتطاير من أعينهم ، وما أشك فى أنهم سيقدمون على أمر قد يضر بك .

قال عمر :

أتهددينني يا عمة !؟

قالت وهى تعد نفسها للرحيل :

يا عمر ! لقد نقلت إليك ما سمعت ، وما رأيت ... ، وقد أديت رسالتى ، وبلغتك بما أجمع عليه أولاد عمومتك ، ولم أجد من يقف بجوارك ، ليكون معك فيما ذهبت إليه ، أو يدافع عنك .

قال عمر :

إننى مع الله ، وهو الذى سيتولى أمرى فما أفعل إلا ما يأمرنى به ، وأنا معه .

لقد اتجهت إلى القوم وهم مجتمعون ، وما يزالون يتشاورون فيما ينبغى عمله ، لكى يتخلصوا من الخليفة .

قالوا لها :

أين كنت يا عمتاه ، وهل فى غيابك ما يفيد وينفع ؟

قالت :

إنه كالطود الشامخ لا يحيد ولا يتزعزع .

ثم انصرفت ، وتركتهم فى أمر مريج .

* * *

صمت كل شىء ، وكان الصمت كصمت القبور ، ورجف المرجفون ، وتسللوا كالرقطاء إلى بيت الخليفة ينتظرون ذهاب أمير المؤمنين إلى مصلاه ، واتصلوا بغلامه الذى يقدم له الطعام ، ودارت بينهم وبين الغلام مناقشات وتمنيات وتهديدات ما لبث الغلام أن خضع لما طلبوا منه ، وفعل فعلته ، ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[1] .

وظهر ما فعله الغلام على وجه الخليفة أمير المؤمنين ، ثم ظهر تأثير ذلك على جسده كله ، فضعف لكنه كان يحاول أن يؤدىَ عمله كاملًا ، وكان

---

(١) سورة الأحزاب الآية : ٣٨ .

ذلك بمشقة كبيرة ، وشعر المقربون إليه بما يعانيه ، فدخلوا إليه يعودونه ، وقال واحد منهم :

أبقاك الله يا أمير المؤمنين ما كان البقاء خيرًا لك .

فقال أمير المؤمنين فى صوت ضعيف .

هذا شىء قد فرغ منه ، ولكن قل أحياك الله حياة طيبة وتوفاك مع الأبرار .

وذاع خبر مرض أمير المؤمنين ، وأحاط الناس بداره ، والحزن يملأ قلوبهم ينظر بعضهم إلى بعض ، والدموع تنزف من عيونهم ، ولا يجدون ما يتكلمون به ، ودخل عليه وزيره (رجاء بن حيوة) فوجده مشغولًا بأمر المسلمين ، وجده يكتب إلى أحد ولاته يقول :

(... إن للإيمان فرائض وشرائع وحدودًا وسننًا من استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص).

وانتشرت الأخبار فى أنحاء البلاد كالبرق ، يتناقلها الناس تقول :

إن بنى أمية قد دسّوا السم لأمير المؤمنين ، وسمع المقربون الخبر الذى انتشر بين الناس ، وتقدم قريب له وقال :

يا أمير المؤمنين ، إنك مسموم ! .

قال وهو يغمض عينيه :

لقد علمت ساعة سقيت السم .

قالوا :

نأتى لك بطيب ؟

قال رضى الله عنه :

والله لو أن شفائى أن أمس شحمة أذنى ، أو أوتى بطيب فأشمه ما فعلت .

ثم استدعى الغلام الذى سقاه السم فقال له :
ويحك ما حملك على ما صنعت ؟
قال الغلام :
ألف دينار أعطيتها .
قال أمير المؤمنين .
هاتها .

فذهب الغلام ، ثم عاد بالدنانير ، فأخذها أمير المؤمنين فوضعها فى بيت مال المسلمين ثم قال للغلام :
اذهب حيث لا يراك أحد فتهلك .

* * *

ثم اشتد عليه المرض ، فقيل له :
لقد تركت أولادك صغارًا وهم كثيرون ، وليس لهم مال ، ولم تولهم إلى أحد .
قال أمير المؤمنين :
ما كنت لأعطيهم شيئًا ليس لهم ، وما كنت لآخذ منهم حقًا لهم ، أولّى فيهم الذى يتولى الصالحين ، وإنما هؤلاء أحد رجلين رجل أطاع الله ، ورجل ترك أمر الله وضيعه .
ثم دخل مسلمة بن عبد الملك على عمر بن عمه ، ونظر إليه وهو يغالب الألم .
فقال مسلمة :
من توصى بأهلك يا أمير المؤمنين ؟
فقال أمير المؤمنين متغافلاً ما نطق به مسلمة :
إذا نسيت الله فذكرنى .
فأعاد مسلمة قوله :
يا أمير المؤمنين ألا توصى ؟

قال :

وهل من مال أوصى فيه !

قال مسلمة :

مائة ألف أبعث بها إليك ، فهى لك فأوصى فيها .

قال :

فهلا غير هذا يا مسلمة .

قال :

وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟

قال عمر رضى الله عنه :

تردها من حيث أخذتها !!

فبكى مسلمة وقال :

(يرحمك الله فقد ألنت منا قلوبًا قاسية، وزرعت لنا فى قلوب المؤمنين مودة، وأبقيت لنا فى الصالحين ذكراً) [1] .

وقيل لعمر رضى الله عنه :

إنك أفقرت ولدك من هذا المال ، فتركتهم عيلة لا شىء لهم فقال :

اسندونى .. حتى استوى جالسًا ثم قال :

أما قولك إنى افقرت أفواه ولدى من هذا المال، فوالله إنى ما منعتهم حقًا لهم، ولم أعطهم ما ليس لهم .

بنىَّ أحد رجلين إما رجل يتقى الله فسيجعل الله له مخرجًا ، وإما رجل مكب على المعاصى ، فإنى لم أكن أقويه على معصية الله .

ثم بعث إليهم .. فنظر إليهم ، فذرفت عيناه فبكى ثم قال :

بنفسى الفتية - كما يقولون - تركتهم عيلة لا شىء لهم، فإنى بحمد الله قد تركتهم بخير .

---

(١) التعازى للمبرد تحقيق إبراهيم محمد الجمل ص ٩٣ مكتبة نهضة مصر - الفجالة .

أى بَنِىّ إنكم لن تلقوا أحدًا من العرب ، ولا من المعاهدين إلا أن لكم عليهم حقًا .

أى بَنِىّ إن أباكم ميل بين أمرين أن تستغنوا ويدخل أبوكم النار ، أو تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة ، فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار قوموا عصمكم الله .

* * *

دنا رجل من عمر وقال له :

يا أمير المؤمنين لو أتيت المدينة ، فإن قضى الله أمراً دفنت فى القبر الرابع مع رسول الله ﷺ وأبى بكر وعمر .

فقال عمر :

(والله لأن يعذبنى الله بكل عذاب إلا النار فإنه لا صبر لى عليها ، أحب إلىّ أن يعلم الله من قلبى أنى لذلك الموضع أهل) .

ثم طلب أن يجلسوه عَلَّ الآلام تخف عنه ولو قليلًا ، فلما جلس قال :

(إلهى ! أنا الذى أمرتنى فقصرت ، ونهيتنى فعصيت .. ولكنى أشهد أن لا إله إلا الله .

اللهم أرضنى بقضائك ، وبارك لى فى قدرك ، حتى لا أحب لما عجلت تأخيرًا ، ولا لما أخرت تعجيلًا) .

لقد تعالت الأصوات بالبكاء ، والنحيب ، فقال لمن حوله :

اخرجوا عنى .

فخرجوا لكنهم راحوا يتتبعون تحركات أمير المؤمنين ، فسمعوه يقرأ ، وكان آخر ما تكلم به قول الله تبارك وتعالى :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا

﴿ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

وانتظر الأهل علهم يسمعون صوته ، لكنهم لم يسمعوا شيئًا ، وكثر الهمس ، ولم يكن هناك بُدٌّ من الدخول عليه ، فوجدوه قد أغمض عينيه ، وأطبق شفتيه ، ويداه ممدودان إلى جنبيه ، وقد سوى جسده إلى القبلة ، ثم دفن بـ (دير سمعان) [2] وظل زمنًا طويلًا مزارًا للعبرة وللعظة .

رحم الله عمر بن عبدالعزيز ، وغفر له ما بدر منه ، وأسكنه فسيح جنته مع النبيين والشهداء والصالحين .

* * *

رثاه الشعراء ، وهو الذى قال لهم : لا أجد ما أعطيه لكم من المال ، وكان بنو أمية يعطونهم بالآلاف .. لكن ذلك لم يمنعهم أن يقولوا فيه كلمة حق :

رثاه جرير فكان مما قاله :

نعى النعاة أمير المؤمنين لنا ... يا خير من حج بيت الله واعتمرا
حُملت أمرًا عظيمًا فاصطبرت له ... وقمت فيهم بأمر الله يا عمرا
فالشمس طالعة ليست بكاسفة ... تبكى عليك نجوم الليل والقمرا [3]

ورثاه كُثَيِّر عزة بقوله :

عمت صنائعه فعم هلاكه ... فالناس فيه كلهم مأجور
والناس مأتمهم عليه واحد ... فى كل دار رنة وزفير
يثنى عليك لسان من لم توله ... خيرًا لأنك بالثناء جدير
ردت صنائعه عليه حياته ... فكان من نشرها منشور

(١) سورة القصص الآية : ٨٣ .
(٢) دير سمعان : مكان بنواحى دمشق فيه ب[illegible]ن وأشجار .
(٣) التعازى للمبرد تحقيق إبراهيم محمد الجمل ص ١١٢ مكتبة نهضة مصر .

وقال مقسم وهو مولى لبعض أهل المدينة يرثى عمر بن عبد العزيز :

لو أعظم الموت خلقًا أن يُلاَقيه   لأعظم الموت أن يلقاك يا عمرُ
لهفى عليك ولهف الموجعين مَعِى   على العدول التى تعيى لها الحُفر
ثلاثة لا ترى عين لهم شبها   تضم أعظم فى المسجد الجذر
فقد بلغت ولم تبلغ فعالهم   ما فوقه لإمام مبصر بصرُ[1]

وكان الفرزدق صاحب النفس الأبية من الذين ردهّم الخليفة عمر ، ولم يستمع لمدحهم ، ولم يعطهم شيئًا ، ولكن لما علم بوفاته لم يملك نفسه إلّا أن يرثيه فكان مما قاله :

أقول لما نعى الناعون عمرًا   لقد نعيتم قِوام الحق والدين
قد غيب الدافنون اللحد إذ دفنوا   (بدير سمعان) قسطاس الموازين[2]
من لم يكن همّه عينًا يفجّرها   ولا النخيل ولا رَكضْ البراذين[3]

* * *

كانت وفاة عمر بن عبد العزيز لعشر ليال بقين من رجب سنة ١٠١هـ بعد أن مكث فى الخلافة عامين وخمسة شهور وبضعة أيام ، ولم يتجاوز سنه الأربعين .

ولقد شهد له من هم على غير الملة فى حياته واتبعوا منهاجه وأعماله وكتب إليه ملك الروم :

(بلغنى أنك سقيت سمًا .. وقد بعثت إليك رأس الأساقفة وكبيرهم ليعالجك مما بك) .

---

(١) المرجع السابق ص : ٩٣ ، ٩٤ .
(٢) اللحد : الشق فى جانب القبر . القسطاس الميزان .
(٣) البراذين : جمع برذون وهو دابة تركية تشبه الفرس ، المعروف لنا .

لكن عمر رضى الله عنه فضل أن يلقى الله وهو بحاله الذى عليه قائلًا :

(لو كان روح الحياة بيدك مَكّنتُك من ذلك .. ارجع إلى صاحبك ، لا حاجة لى فى علاجك) .

وفى أيامنا هذه ، وفى السويد نسمع من الموثوق بأخبارهم أن بها جمعية تسمى باسم عمر تعمل بما كان يعمله عمر بن عبد العزيز وهو فى خلافته تساعد الشباب وتقضى حوائجه من زواج ومساعدات مالية حتى يستقيم أمرهم .

لقد سيطر عمر على قلوب جميع المسلمين فى كل العهود إلى يومنا هذا ، ولا نملك إلا الدعاء له بالرحمة وعلو المكانة عند الله سبحانه .

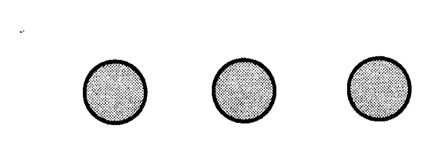
ويكفى عمر بن عبد العزيز إعزازًا ومكانة أن ينتقم بنو العباس من بنى أمية فينبشوا جميع قبورهم إلا قبر عمر بن عبد العزيز فقد احترموا رفاته تقديرًا لما قام به من أعمال مجيدة تتفق مع ما جاء به الشرع الحكيم فكان مثلًا خالدًا على مر الأيام والعصور لكل حاكم يلى أمر المسلمين ، ولمن يريد أن ينهج على منهاجه ، فيوثق صلته بربه وخالقه .

* * *

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



رقم الإيدع بدار الكتب المصرية ٥٦٧٦ / ١٩٩٥م

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـــ ١١٢٣١